47 to 49 Surahs Muhamad Fath and Hijr Al-Baqaaee

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي

سورة محمد (47)،

سورة الفتح (48)،

سورة الحجرات (49)

▲ سورة محمد

47

▲ تفسير الآيات رقم [1- 3]

{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1)
وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ وَآَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2)
ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)}

فقال سبحانه وتعالى: {الذين كفروا} أي ستروا أنوار الأدلة فضلوا على علم {وصـدوا} أي امتنعوا بأنفسـهم ومنعوا غيرهم لعراقتهم في الكفر {عن سـبيل الله} أي الطريق الرحب المسـتقيم الذي شـرعه الملك الأعظم {أضـل} أي أبطـل إبطَّالاً عظيماً يزيـل العين والأثر {أعمـالهم * } التي هي أرواحهم المعنوية وهي كل شـيء يقصـدون به نفع أنفسـهم من جلب نفع أو دفع ضـر بعد أن وفر سـيئاتهم وأفسـد بالهم، ومن جملة أعمالهم ما يكيدونكم به لأنها إذا ضلت عما قصدوا بها بجعله سبحانه لها ضالة ضائعة هلكت من جهة أنها ذهبت في المهالك ومن جهة أنها ذهبت في غير الجهة التي قصـــدت لها فبطلت منفعتها المقصـودة منها فصـارت هي باطلة فأذهبوا أنتم أرواحهم

الحسـية بأن تبطلوا صـورهم وأشـباحهم بأن تقطعوا أوصـالهم وأنتم في غاية الاجتراء عليهم، فـإن ربهم الذي أوجدهم قد أبطلهم وأذن لكم في إبطـالهم، فإنه قد علم أن لا صـــلاح لهم والمؤذي طبعاً يقتل شــرعاً، فمن قدرتم على قتله فهو محكوم بكفره، محتوم بخيبته وخسره.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما انبنت سورة الأحقاف على ما ذكر من مآل من كذب وافترى وكفر وفجر، وافتتحت السـورة بإعراضــهم، ختمت بما قد تكرر من تقريعهم وتوبيخهم، فقال تعالى: {ألم يروا أن الله الذي خلق الســـماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى} أي لو اعتبروا بالبداءة لتيســر عليهم أمر العودة، ثم ذكر عرضــهم على النار إلى قوله {فهل يهلك إلا القوم الفاســقون} فلما ختم بذكر هلاكهم، افتتح السـورة الأخرى بعاجل ذلك اللاحق لهم في دنياهم فقال تعالى: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها} الآية بعد ابتداء السورة بقوله {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم} فنبه على أن أصـل محنتهم إنما هو بما أراده تعالى بهم في ســـابق علمه ليعلم المؤمنون أن الهدى والضـــلال بيده، فنبه على الطريقين بقوله {أضـل أعمالهم} وقوله في الآخر {كفر عنهم سـيئاتهم وأصـلح بالهم} ثم بين أنه تعالى لو شـاء لانتصـر منهم ولكن أمر المؤمنين بقتالهم ابتلاء واختباراً، ثم حض المؤمنين على ما أمرهم به من ذلك فقال: {إن تنصروا الله ينصركم} ثم التحمت الآي– انتهى.

ولما ذكر أهل الكفر معبراً عنهم بأدنى طبقاتهم ليشـــمل من فوقهم، ذكر أضـــدادهم كذلك ليعم من كان منهم من جميع الفرق فقال تعالى : {والذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان باللسان {وعملوا} تصديقاً لدعواهم ذلك {الصالحات} أي الأعمال الكاملة في الصـــلاة بتأســيســها على الإيمان. ولما كان هذا الوصف لا يخص أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، خصهم بقوله تعالى: {وآمنوا} أي مع ذلك.

ولما كان بعضـــهم كحيي بن أخطب ومن نحا نحوه قد طعن في القرآن بنزوله منجماً مع أن التوراة ما نزلت إلا كذلك، وليس أحد منهم يقدر أن ينكره قال : {بما نزل} أي ممن لا منزل إلا هو منجماً مفرقاً ليجددوا بعد الإيمان به إجمالاً الإيمان بكل نجم منه {على محمد} النبي الأمي العربي القرشـــي المكي ثم المدني الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل صلى الله عليه وسلم، ولما كان هذا معلماً بأن كل إيمان لم يقترن بالإيمان به صـــلى الله عليه وســـلم لم يعتد به، اعترض بين المبتدأ وجوابه بما يفهم علته حثاً عليه وتأكيداً له فقال تعالى: {وهو} أي هذا الذي نزل عليه صلى الله عليه وســلم مختص بأنه {الحق} أي الكامل في الحقية لأن ينســخ ولا ينسخ كائناً {من ربهم} المحسن إليهم بإرساله، أما إحسانه إلى أمته فواضح، وأما سائر الأمم فبكونه هو الشافع فيهم الشفاعة العظمى يوم القيامة، وأمته هي الشاهدة لهم.

ولما ثبت بهذا أنهم أحق الناس بالحق، بين ما أثمر لهم ذلك دالاً على أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره، فلا يســـع الخلق إلا العفو لأنهم وإن

اجتهدوا في الإصـلاح بدا لهم لنقصـانهم من سيئات أو هفوات فقال تعالى: {كفر } أي غطى تغطية عظيمة {عنهم} في الدارين بتوبتهم وإيمانهم لأن التوبة تجب ما كان قبلها كالإيمان {سـيئاتهم} أي الأعمال السـيئة التي لحقتهم قبل ذلك بما يظهر لهم من المحاسـن وهدى أعمالهم. ولما كان من يعمل سـوءاً يخاف عاقبته فيتفرق فكره، إذ لا عشـية لخائف قال تعالى: {وأصـلح بالهم *} أي موضـع سـرهم وفكرهم بالأمن والتوفيق والسـداد وقوة الفهم والرشـاد لما يوفقهم له من محاسـن الأعمال ويطيب به اسـمهم في الدارين، قال ابن برجان: وإذا أصـلح ذلك من العبد صـلح ما يدخل إليه وما يخرج عنه وما يثبت فيه، وإذا فسد فبالضد من ذلك. ولذلك إذا اشتغل البال لم ينتفع من صـفات الباطن بشـيء، وقد علم أن الآية من الاحتباك: ذكر ضلال الكفار أولاً دليلاً على إرادة الهدى للمؤمنين ثانياً، وإصلاح البال ثانياً دليلاً على حذف إفساده أولاً.

ولما كان الجزاء من جنس العمل، علل ما تقدم من فعله بالفريقين بقوله: {ذلك} أي الأمر العظيم الذي ذكر هنا من جزاء الطائفتين {بأن} أي بسبب أن {الذين كفروا} أي سـتروا مرائي عقولهم {اتبعوا} أي بغاية جهدهم ومعالجتهم لما قادتهم إليه فطرهم الأولى {الباطل} من العمل الذي لا حقيقة له في الخارج يطابقه، وذلك هو الابتداع والميل مع الهوى إيثاراً للحظوظ فضـلوا {وأن الذين آمنوا} أي ولو كانوا في أقل درجات الإيمان {اتبعوا} أي بغاية جهدهم متابعين لما تدعو إليه الفطرة الأولى مخالفين لنوازع الشـهوات ودواعي الحظوظ على كثرتها وقوتها {الحق} أي الذي له واقع يطابقه وذلك

هو الحكمة وهي العمل بموافقة العلم وهو معرفة المعلوم على ما هو عليه {من ربهم} الذي أحسن إليهم بإيجادهم وما سببه من حسن اعتقادهم فاهتدوا. ولما علم من هذا أن باطن حال الذين كفروا الباطل، وباطن حال الذين آمنوا الحق، وتقدم في البقرة أن المثل هو ما يتحصل في باطن الإدراك من حقائق الأشياء المحسوسة، فيكون ألطف من الشيء المحسوس، وأن ذلك هو وجه الشبه، علم أن مثل كل من الفريقين ماعلم من باطن حاله فمثل الأول الباطل ومثل الثاني الحق، فلذلك قال سبحانه استئنافاً جواباً لمن كأن قال لما أدركه من دهش العقل لما راعه من علو هذا المقال: هل يضرب مثل مثل هذا: {كذلك} أي مثل هذا الضرب العظيم الشأن {يضرب الله} أي الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال {للناس} أي كل من فيه قوة الاضطراب والحركة {أمثالهم *} أي أمثال أنفسهم وأمثال الفريقين المتقدمين أو أمثال جميع الأشياء التي يحتاجون إلى بيان أمثالها مبيناً لها مثل هذا البيان ليأخذ كل واحد من ذلك جزاء حاله، فقد علم من هذا المثل أن من اتبع الباطل أضل الله عمله ووفر سيئاته وأفسد باله، ومن اتبع الحق عمل به ضد ذلك كائناً من كان، وهو غاية الحث على طلب العلم في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والعمل بهما.

▲ تفسير الآيات رقم [4- 5]

{فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4)

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5)}

ولما تحرر أن الكفار أحق الخلق بالعدم لأن الباطل مثلهم وحقيقة حالهم، سبب عنه قوله: {فإذا لقيتم} أي أيها المؤمنون {الذين كفروا} ولو بأدنى أنواع الكفر في أيّ مكان كان وأيّ زمان اتفق. ولما كان المراد القتل المجهر بغاية التحقق، عبر عنه مؤكداً له من الاختصار بذكر المصدر الدال على الفعل مصوراً له بأشنع صوره مع ما فيه من الغلظة على الكفار والاستهانة بهم فقال تعالى: {فضرب الرقاب} أي عقبوا لقيكم لهم من غير مهلة بأن تضربوا رقابهم ضرباً بالصدق في الضرب بما يزهق أرواحهم، فإن ذلك انتهاز للفرصة وعمل بالأحوط، وكذلك النفس التي هي أعدى العدو إذا ظفرت بها وجب عليك أن لا تدع لها بقية، قال القشيري: فالحية إذا بقيت منها بقية فوضعت عليها إصبع ثبت فيها سمها.

ولما كان التقدير: ولا يزال ذلك فعلكم، غياه بقوله: {حتى} وبشرهم بالتعبير بأداة التحقق فقال تعالى: {إذا أثخنتموهم} أي أغلظتم القتل فيهم وأكثرتموه بحيث صاروا لا حراك بهم كالذي ثخن فأفرط ثخنه؛ فجعل ذلك شرطاً للأسر كما قال تعالى {وما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في

الأرض} [الأنفال: 67] ثم قال تعالى مبيناً لما بعد الثخن: {فشدوا} أي لأنه لا مانع لكم الآن من الأسر {الوثاق} أي الرباط الذي يستوثق به من الأسر بالربط على أيديهم مجموعة إلى أعناقهم- مجاز عن الأسر بغاية الاستيلاء والقهر.

ولما كان الإمام مخيراً في أسـراهم بين أربعة أشـياء: القتل والإطلاق مجاناً والإطلاق بالفدية وهي شيء يأخذه عوضاً عن رقابهم والاسترقاق، عبر عن ذلك بقوله مفصـــلاً: {فإما منّاً} أي أن ينعموا عليهم إنعاماً {بعد} أي في جميع أزمان ما بعد الأسر باستبقائهم ثم بعد الإنعام باستبقائهم إما أن يكون ذلك مع الاسـترقاق أو مع الإطلاق ثم الإطلاق إما مجاناً {وإما فداء} بمال أو بأسـرى من المسـلمين ونحو ذلك، فأفهم التعبير بالمن الذي معناه الإنعام أن الإبقاء غير واجب بكل جائز، ودخل في الإبقاء ثلاث صور: الاسترقاق والإطلاق مجاناً وبالفداء فصــرح ســبحانه وتعالى بالفداء الذي معناه الأخذ على وجه أن قسيم للمن، فعلم أن المراد به الإبقاء مع عدم الأخذ فدخل فيه الإطلاق مجاناً وهو واضـح والاسـترقاق لأنه إنعام بالنسـبة إلى القتل، وأفهم التعبير بالمن الذي معناه الإنعام من المنان الذي هو اســـمه تعالى ومعناه المعطي ابتداء جواز القتل لأن الإنعام مخير فيه لا واجب لأنه لو كان واجباً كان حقاً لا نعمة، فقد دخلت الســـور الأربع في التعبير بهاتين الكلمتين- والله الهادي، وكل هذا على ما يراه الإمام أو نائبه مصـلحة، قال القشـيري: كذلك حال المجاهدة مع النفس إذا كان في إغفاء سـاعة وإفطار يوم ترويح للنفس من الكد وقوة على الجهد فيما يســتقبل من الأمر على ما

يحصـل به الاسـتصـواب من شـيخ المريد وفتوى لسـان الوقت أو فراسـة صاحب المجاهدة- انتهى.
وقد أفهم هذا السـياق أن هذا الحكم ثابت غير منسـوخ والأمر بالقتل وحده في غيرها من الآيات عام غير مخصوص بما أفهمته الغاية من أن التقدير: والجهاد على هذه الصفة باق وماض مع كل أمير براً كان أو فاجراً، لا يزال طائفة من الأمة قائمين به ظاهرين على الحق لا يضـرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهو- والله أعلم- المراد بقوله تعالى: {حتى} أي افعلوا ما أمرتكم به على ما جددت لكم إلى أن {تضع الحرب أوزارها} وهي أثقالها أي الآلات التي تثقل القائمين بها من النفقات والسـلاح والكراع ونحوه، وذلك لا يكون وفي الأرض كافر، وذلك على زمن عيسى عليه الصلاة والسلام حين تخرج الأرض بركاتها، وتكون الملة واحدة وهي الإسـلام لله رب العالمين، فيتخذ الناس حديد السـلاح سـككاً ومناجل وفؤوسـاً ينتفعون بها في معاشـهم كما ورد في الحديث: «الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال»- رواه في الفردوس عن أنس رضـي الله عنه «الجهاد واجب عليكم مع كل بر وفاجر» رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.
ولما كانت الحرب كريهة إلى النفوس شـديدة المشـقة، أكد أمرها بما معناه: إن هذا أمر قد فرغ منه، فقال تعالى: {ذلك} أي الأمر العظيم العالي الحسن النافع الموجب لكل خير . ولما كان هذا ربما أوهم أن التأكيد في هذا الأمر لكون الحال لا يمكن انتظامه إلا به، أتبعه ما يزيل هذا الإيهام فقال: {ولو} ولما كان لو عبر بالماضـي أفاد أنه كان ولم يبق، عبر بالمضـارع الدال

على الحال وما بعده فقال: {يشـــاء الله} أي الملك الأعظم الذي له جميع صفات الكمال والقدرة على ما يمكن {لانتصر منهم} أي بنفسه من غير أحد انتصاراً عظيماً بأن لا يبقى منهم أحداً {ولكن} أوجب ذلك عليكم {ليبلوا}.

ولما كان الابتلاء ليس خاصاً بفريق منهم بل عاماً للفريقين لأنه يكشف عن أهل المحاسن وأهل المساوئ من كل منهم، قال تعالى: {بعضكم} من الفرقة المؤمنين بـالإنكـار عليهم من الفرقـة الطـاغين حتى يكون لهم بـذلـك اليد البيضــاء {ببعض} أي يفعل في ذلك فعل المختبر ليترتب عليه الجواء على حسب ما تألفونه من العوائد.

ولما أفهم هذا أن الابتلاء بين فريقين بالجهاد، قال عاطفاً على ما تقديره: فالذين قاتلوا أو قتلوا في سبيل الشيطان أضل أعمالهم: {والذين قتلوا} وفي قراءة البصـريين وحفص {قتلوا} وهي أكثر ترغيباً والأولى أعظم ترجية {في سبيل الله} أي لأجل تسهيل طريق الملك الأعظم المتصف بجميع صفات الكمال.

ولما كان في ســياق الترغيب، قرن الخبر بالفاء إعلاماً بأن أعمالهم ســببه فقال تعالى: {فلن يضـل} أي يضـيع ويبطل {أعمالهم *} لكونها غير تابعة لدليل بل يبصــرهكم بالأدلة ويوفقهم لاتباعها، وهو معنى قوله تعالى تعليلاً: {سيهديهم} أي في الدارين بوعد لا خلف فيه بعد المجاهدة إلى كل ما ينفعهم مجدداً ذلك على سبيل الاستمرار {ويصلح بالهم} أي موضـع فكرهم فيجعله مهيأ لكل خير بعيداً عن كل شر آمناً من المخاوف مطمئناً بالإيمان بما فيه

من السكينة، فإذا قتل أحد في سبيله تولى سبحانه وتعالى ورثته بأحسن من تولي المقتول لو كان حياً.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 9]

{وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7)
وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8)
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9)}

ولما كان هذا ثواباً عظيماً ونوالاً جسيماً، أتبعه ثواباً أعظم منه فقال تعالى: {ويدخلهم الجنة} أي دار القرار الكاملة في النعيم، وأجاب من كأنه يسأل عن كيفية إدخالهم إياها وكيفيتها عند ذلك بقوله تعالى: {عرفها لهم *} أي بتعريف الأعمال الموصلة إليها والتوفيق لهم إليها في الدنيا وأيضاً بالتبصير بالمنازل في الآخرة حتى أن أحدهم يصير أعرف بمنزله فيها منه بمنزله في الدنيا، وطيب رائحتها وجعل موضعها عالياً وجدرانها عالية وهي ذات أغراف وشرف، وفي هذه الآية بشرى عظيمة لمن جاهد ساعة ما بأن الله يميته على الإسلام المستلزم لئلا يضيع له عمل، ويؤيده ما رواه الطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «للإسلام ثلاث أبيات: سفلى وعليا وغرفة، فأما السفلى فالإسلام دخل فيه عامة المسلمين فلا تسأل أحداً منهم

إلا قال: أنا مسلم، وأما العليا فتفاضل أعمالهم بعض المسلمين أفضل من بعض، وأما الغرفة العليا فالجهاد في سبيل الله لا ينالها إلا أفضلهم».

ولما ذكر القتال، تشوف السامع إلى حال المقاتل من النصر والخذلان فأجاب بما يعرف بشرط النصر فقال: {يا أيها الذين آمنوا} أي أقروا بذلك وإن كان في أدنى الدرجات بما أشعرت به أداة البعد والصلة بالماضي {إن تنصروا الله} أي يتجدد لكم نية مستمرة وفعل دائم على نصرة دين الملك الأعظم بإيضاح أدلته وتبيينها وتوهية شبه أهل الباطل وقتالهم، ويكون ذلك خالصاً له لا لغيره من النيات الفاسدة المعلولة بطلب الدنيا أو الشهرة بالشجاعة والعلم وطيب الذكر الغضب للأهل وغير ذلك {ينصركم} فإنه الناصر لا غيره من عدد أو عدد فيقمع أعداء الدين بأيديكم.

ولما كان النصر قد يكون مع العجز والكسل والجبن والفشل بين أنه يحميهم من ذلك فقال: {ويثبت أقدامكم *} أي تثبيتاً عظيماً بأن يملأ قلوبكم سكينة واطمئناناً وأبدانكم قوة وشجاعة في حال القتل ووقت البحث والجدال، وعند مباشر جميع الأعمال، فتكونوا عالين قاهرين في غاية ما يكون من طيب النفوس وانشراح الصدور ثقة بالله واعتزازاً به وإن تملأ عليكم أهل الأرض.

ولما ذكر أهل الإيمان، بين ما لأهل الكفران، فقال سبحانه: {والذين كفروا} أي ستروا ما دل عليه العقل وقادت إليه الفطر الأولى، وبين أن سوء أعمالهم أسباب وبالهم بالفاء. فقال مؤكداً بجعل الخبر مفعولاً مطلقاً لأجل استبعادهم بما لهم من القوة بكثرة العدد والملاءة بالعدد: {فتعساً} أي فقد عثروا فيقال لهم ما يقال للعاثر الذي يراد أنه لا يقوم: تعساً لا قيام معه،

كما يقال لمن عثر وأريد قيامه: تعساً لك، والمراد بالتعس الانحطاط والسفول والهوان والقلق.

ولما كان كأنه قيل: لمن هذا؟ قيل: {لهم} فلا يكادون يثبتون في قتال لمن صلحت من الأعمال.

ولما كان الإنسان قد يعثر ويقع ويقال له: تعساً، ويقوم بعد ذلك، ولا يبطل عمله، بين أن قوله ليس كذلك، بل مهما قاله كان لا يتخلف أصلاً، فقال معبراً بالماضي إشارة إلى التحتم فيه، وأما الاستقبال فربما تاب على بعضهم فيه عاطفاً على ما تقديره فقال تعالى لهم ذلك: {وأضل أعمالهم *} وإن كانت ظاهرة الإيقان لأجل تضييع الأساس بالإيمان.

ولما بين ما صنع بهم ليجترئ به حزبه عليهم، بين سببه ليجتنب فقال: {ذلك} الأمر البعيد من الخير {بأنهم} أي بسبب بأنهم {كرهوا} بغضوا وخالفوا وأنكروا {ما أنزل الله} أي الملك الأعظم الذي لا نعمة إلا منه، والذي أنزله من القرآن والسنة هو روح الوجود الذي لا يعاندونه، فلما كرهوا الروح الأعظم بطلت أرواحهم فتبتها أشباحهم، وهو معنى قوله مسبباً بياناً لمعنى إضلال أعمالهم: {فأحبط} أي أبطل إبطالاً لا صلاح معه {أعمالهم *} بسبب أنهم أفسدوها بنياتهم فصارت وإن كانت صورها صالحة ليس لها أرواح، لكونها واقعة على غير ما أمر به الله الذي لا أمر إلا له يقبل من العمل إلا ما حده ورسمه، وهذا وعيد للأمة بأنها إن تخلت عن نصر الله والجهاد في سبيله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلها سبحانه إلى

نفســـها وتخلى عن نصــرها وســلط عليها عدوها، ولقد وجد بعض ذلك من تسلط الفسقة لما وجد التهاون في بعض ذلك والتواكل فيه.

تفسير الآيات رقم [10 –14]

{أَفَلَمْ يَسِــيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10)
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11)
إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّــالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12)
وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَــدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِــرَ لَهُمْ (13)
أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14)}

ولما كان لا يســـتهين بهذه القضـــايا ويجترئ مثل هذه البلايا إلا من أمن العقوبة، ولا يأمن العقوبة إلا من أعرض عن الله ســـبحانه وتعالى، وكان يكفي في الصد عن الأمرين وقائعه تعالى بالأمم الخالية لأجل تكذيب رسله ومناصـــبة أوليائه والاعتداء على حدوده، قال منكراً عليهم وموبخاً لهم تقدماً إليهم بالتحذير من بطشه وسطوته وشديد أخذه وعقوبته، مسبباً عن كراهيتهم المذكورة وما تأثر عنها من العداوة لأهل الله: {أفلم يســـيروا} أي بســـبب تصحيح أعمالهم وبنائها على أساس {في الأرض} أي التي فيها آثار الوقائع

فإنها هي الأرض في الحقيقة لما لها من زيادة التعريف بالله {فينظروا} عقب سيرهم وبسببه. ولما كانت وقائعه خلعة للقلوب بما فيها من الأمور الباهرة الناطقة بها ألسنة الأحوال بعد التنبيه بالمقال، ساق ذلك بسوقه في أسلوب الاستفهام مساقاً منبهاً على أنه من العظمة بحيث يفرغ الزمان للعناية بالسؤال عنه فقال: {كيف كان عاقبة} أي آخر أمر {الذين} ولما كان يمكنهم معرفة ذلك من جميع المهلكين، نبه بإثبات الجار على أنهم بعضهم بل بعض المكذبين للرسل، وهم الذين سمعوا أخبارهم ورأوا ديارهم بعاد وثمود ومدين وسا وقوم لوط فقال تعالى: {من قبلهم} ولما كان كأنه قيل: ما لهم؟ قال: {دمر الله} أي أوقع الملك الأعظم الهلاك العظيم الداخل بغير إذن، الهاجم بغتة {عليهم} بما علم أهاليهم وأحوالهم وكل من رضي فعالهم أو مقالهم، وعدل عن أن يقول: «ولهؤلاء» إلى قوله: {وللكافرين} تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف وهو العراقة في الكفر، فكان فيه بشارة بأن بعضهم سينجيه الله تعالى من أسباب الهلاك لكونه ليس عريقاً في الكفر، لأنه لم يطبع عليه {أمثالها *} أي أمثال هذه العاقبة.

ولما بين أن يعلي أولياءه ويذل أعداءه، بين علته فقال: {ذلك} أي الأمر العظيم الذي فعله بالفريقين {بأن الله} أي بسبب أن الملك الأعظم المحيط بصفات الكمال {مولى الذين آمنوا} أي القريب من المصدقين به المرضين له، فهو يفعل معهم بما له من الجلال والجمال ما يفعل القريب بقريبه الحبيب له، قال القشيري: ويصح أن يقال: أرجى آية في كتاب الله هذه الآية لأنه لم يقل: الزهاد والعباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد. يعني بل ذكر أدنى

أسنان أهل الإيمان. {وأن الكافرين} أي العريقين في هذا الوصف {لا مولى لهم *} بهذا المعنى، لأنهم بعيدون من الله الذي لا يعبد على الحقيقة إلا هو، فلا ينفعهم قرب قريب أصـــلاً وإن كان الله مولاهم بغير هذا المعنى بل بمعنى أنه سـيدهم ومالكهم، وفيه إيماء إلى أنه سـبحانه وتعالى ولي من لم يكن عريقاً في الكفر فيخرجه من الظلمات إلى النور.

ولما تشـوف السـامع إلى تعرف تمام آثار الولاية، قال شـافياً لعيّ سـؤالهم مؤكداً لأجل كثرة المكذبين: {إن الله} أي الذي له جميع الكمال {يدخل الذين آمنوا} أي أوقعوا التصـــديق {وعملوا} تصـــديقاً لما ادعوا أنهم أوقعوه {الصـــالحات} فتمتعوا بما رزقهم الله من الملاذ لا على وجه أنها ملاذ بل على وجه أنها مأذون فيها، وهي بلاغ إلى الآخرة وأكلوا لا للترفه بل لتقوية البدن على ما أمروا به تقوتاً لا تمتعاً {جنات} أي بســاتين عظيمة الشــأن موصـــوفة بأنها {تجري} وبين قرب الماء من وجهها بقوله: {من تحتها الأنهار} أي فهي دائمة النمو والبهجة والنضـارة والثمرة لأن أصـول أشـجارها ربى وهي بحيث متى أثرت بقعة مناه أدنى إثارة جرى منها نهر، فأنســـاهم دخولهم غصـــص ما كانوا فيه في الدنيا من نكد العيش ومعاناة الشـــدائد، وضموا نعيمها إلى ما كانوا فيه في الدنيا من نعيم الوصلة بالله ثم لا يحصل لهم كدر ما أصـــلاً، وهي مأواهم لا يبغون عنها حولاً، وهذا في نظير ما زوي عنهم من الدنيا وضـــيق فيها عيشـــهم نفاســـة منهم عنها حتى فرغهم لخدمته وألزمهم حضرته حباً لهم وتشريفاً لمقاديرهم {والذين كفروا} أي غطوا ما دل عليه العقل فعملوا لأجل كفرهم الأعمال الفاســـدة المبعدة عن جناب

الله {يتمتعون} أي في الدنيا بالملاذ لكونها ملاذ كما تتمتع الأنعام، ناسين ما أمر الله معرضين عن لقائه بل عن الموت أصلاً بل يكون ذكر الموت حاثاً لهم على الانهماك في اللذات مسابقة له جهلاً منهم بالله {ويأكلون} على سبيل الاستمرار {كما تأكل الأنعام} أكل التذاذ ومرح من أيّ موضع كان وكيف كان الأكل في سبعة أمعاء، أي في جميع بطونهم من غير تمييز للحرام من غيره لأن الله تعالى أعطاهم الدنيا ووسع عليهم فيها وفرغهم لها حتى شغلهم عنه هواناً بهم وبغضاً لهم لأنه علم حالهم قبل أن يوجدهم فيدخلهم ناراً وقودها الناس والحجارة {والنار} أي والحال أن ذات الحرارة العظمى والإحراق الخارج عن الحد {مثوى} أي منزل ومقام {لهم *} تنسيهم أول انغماسهم فيها كل نعيم كانوا فيه ثم لا يصير لهم نعيم ما أصلاً، بل لا ينفك عنهم العذاب وقتاً ما، فالآية من الاحتباك، ذكر الأعمال الصالحة ودخول الجنات أولاً دليلاً على حذف الفاسدة ودخول النار ثانياً، والتمتع والمثوى ثانياً دليلاً على حذف التعلل والمأوى أولاً، فهو احتباك في احتباك واشتباك مقارن لاشتباك.

ولما وعد سبحانه أنه ينصر من ينصره لأنه مولاه ويدخله دار نعمته، ويخذل من يعانده لأنه عاداه إلى أن يدخله دار شقوته، كان التقدير دليلاً على ذلك: فكأين من قوم هم أضعف من الذين اتبعوك نصرناهم على من كذبهم، فلا خاذل لهم، فعطف عليه قوله: {وكأين} ولما كانت قوة قريش في الحقيقة ببلدهم، وكان الإسناد إليها أدل على تمالؤ أهلها وشدة اتفاقهم حتى كأنهم كالشيء الواحد قال: {من قرية} أي كذبت رسولها {هي أشد قوة}

وأكثر عدة {من قريتك} ولما كان إنزال هذه بعد الهجرة، عين فقال: {التي أخرجتك} أي أخرجك أهلها متفقين في أسباب الإخراج من أنواع الأذى على كلمة واحدة حتى كأن قلوبهم قلب واحد فكأنها هي المخرجة- وهي مكة- كذبوك وآذوك حتى أخرجناك من عندهم لننصرك عليهم بمن أيدناك بهم من قريتك هذه التي آوتك من الأنصـــار نصـــراً جارياً على ما تألفونه وتعتادونه {أهلكناهم} بعذاب الاستئصال كما اقتضت عظمتنا، وحكى حالهم الماضية بقوله: {فلا ناصر لهم *}.

ولما كان هذا دليلاً شـهودياً بعد الأدلة العقلية على ما تقدم الوعد به، سـبب عنه الإنكار عليهم فقال: {أفمن كان} أي في جميع أحواله {على بينة} أي حالة ظاهرة البيان في أنها حق {من ربه} المربي المدبر له المحسن إليه بما يقيم من الأدلة التي تعجز الخلائق أجمع عن أن يأتوا بواحد منها فبصـــر سـوء عمله وأريه على حقيقته فرآه سيئاً فاجتنبه مخالفاً لهواه، قال القشـيري: العلماء في ضياء برهانهم والعارفون في ضياء بيانهم. {كمن زين له} بتزيين الشيطان بتسليطنا له عليه وخلقنا للآثار بأيسر أمر {سوء عمله} من شرك أو معصية دونه.

ولما كان التقدير: فرآه حســناً فعمله ملازماً له، فكان على عمى وضـــلال، وكـان قد أفرد الضــــمير لقبول «من» لـه من جهة لفظها، جمع رداً على معناها بتعميم القبح مثنى وفرادى، وإشـــــارة إلى أن القبيح يكون أولاً قليلاً جداً، فمتى غفل عنه فلم تحســـم مادته دب وانتشـــر فقال عاطفاً على ما قدرته: {واتبعوا أهواءهم *} فلا شـبهة لهم في شــيء من أعمالهم السـيئة

فضلاً عن دليل، والآية من الاحتباك ذكر البينة أولاً دليلاً على ضدها ثانياً، والتزيين واتباع الهوى ثانياً دليلاً على ضدهما أولاً، وسره أنه ذكر الأصل الجامع للخير ترغيباً والأصل الجامع للشر ترهيباً.

▲ تفسير الآية رقم [15]

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ
فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ
وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ
وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ
وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى
وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ
كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)}

ولما تكرر ذكر الجنة والنار في هذه السورة إلى أن ختم بهذه الآية التي قسم الناس فيها إلى أولياء مهتدين وأعداء ضالين معتدين، فهدى سياقها إلى أن التقدير : أفمن كان على بينة من ربه أحياه الحياة الطيبة في الدارين، ومن تبع هواه أراده فيها، أتبعه وصف الجنة التي هي دار أوليائه قادهم إليها الهدى، والنار التي هي دار أعدائه ساقهم إليها الضلال المحتم للردى،

فقال: {مثل الجنة} أي البســـاتين العظيمة التي تســـتر داخلها من كثرة أشجارها.

ولما تكرر وعده سبحانه للذين آمنوا بالجنة بالاسم الأعظم الجامع وبعضـها بالضـــمير العائد إليه، صـــار الوعد بها في غاية التحقق فعبر عنه هنا بالماضي المبني للمفعول إشارة إلى أنه أمر قد تحقق بأسهل أمر، وفرغ منه إلى أن صار حاضراً لا مانع منه إلا الوصف الذي علق به الوعد ووصفها بصـفات تفيد القطع بأنه لا يقدر عليها إلا الله فصـار مجرد ذكرها والإخبار به عنها بصـيغة المجهول أعلى لأمره فقال: {التي وعد المتقون} أي الذي حملتهم تقواهم بعد الوقوف عن كل فعل لم يدل عليه دليل على أن اسـتمعوا منك فانتفعوا بما دللتهم عليه من أمور الدين حتى انقســـم الناس إلى ثلاثة أقســـام: مقبل عليه بكليته فهو متبع، ومعرض عنه جملة، ومســـتمع غير منتفع.

ولما كان التقدير: مثل بستان عظيم لا يسقط ورقه ولا ينقطع ثمره ولا يتفطن نعيمه لما فيه من الأنهار المتنوعة، وكان ما هو بهذه الصفة إنما هو موهوم لنا لا معلوم، طواه وذكره ما دل عليه من صـــفة الجنة الموعودة المعلومة بوعد الصـادق الذي ثبت صـدقه بالمعجزات فقال استئنافاً: {فيها} أي الجنة الموعودة. ولما كان ما يعهدونه من الجنان لا يحتمل أكثر من ثلاثة أنهار، عبر بالجمع الذي يســتعار للكثرة إذا دلت قرينة، وهي هنا المدح والامتنان، فقال: {أنهار من ماء} ولما كان ماء الدنيا مختلف الطعوم على ثلاثة: حلو وعذب وملح، مع اتحاد الأرض ببســاطتها وشـدة اتصــالها للدلالة على أن

فاعل ذلك قادر مختار، وقد يكون آســناً أي متغيراً عن الماء الذي يشــرب بريح منتنة من أصـــل خلقه أو من عارض عرض له من منبعه أو مجراه قال: {غير آســن} أي ثابت له في وقت ما شـــيء من الطعم أو الريح أو اللون بوجه من الوجوه وإن طالت إقامته وإن أضــيف إليه غيره فإنه لا يقبل التغير بوجه.

ولما كان أكثر شــرابهم بعد الماء اللبن، ثنى به فقال ســبحانه: {وأنهار من لبن} ولما كان التغير غير محمود، وكانوا يعهدون في الدنيا أن اللبن كله على جميع أنواعه طيب حال نزوله من الضــرع مع اختلاف ذوات الدر في الأشـــكال والأنواع والمقادير والأمزجة، ومع انفصـــال كل واحدة منها من الأخرى، وأنه إنما يتغير بعد حلبه، عبر بما ينفي التغير في الماضــي فقال: {لم يتغير طعمه} أي بنفســه عن أصــل خلقته وإن أقام مدى الدهر، وهذا يفهم أنهم لو أرادوا تغييره لشــهوة اشــتهوها تغير، وأنه مع طيبه على أنواع كثيرة كما كان في الدنيا متنوعاً.

ولما كان أكثر ما بعد اللبن الخمر قال: {وأنهار من خمر} ولما كانت الخمر يكثر طعمها، وإنما يشــربها شـــاربوها لأثرها، وأنه متى تغير طعمها زال اســـمها، عرف أن كل ما في خمر الجنة في غاية الحســـن غير متعرض لطعم فقال: {لذة} أي ثابتة لها اللذة ودائمة حال شربها وعبده {للشاربين *} في طيب الطعم وحسن العاقبة.

ولما كان العسل أعزها وأقلها، أخره وإن كان أجلها فقال: {وأنهار من عسل} ولما كان عســل الدنيا لا يوجد إلا مخلوطاً بالشــمع وغيره من القذى قال:

{مصفى} أي هو صاف صفاء ما اجتهد في تصفيته من ذلك، وهذا الوصف ثابت له دائماً لا انفكاك له عنه في وقت ما، فقد حصل بهذا غاية التشويق إلى الجنة بالتمثيل بما يستلذ به من أشربة الدنيا لأنه غاية ما نعلم من ذلك مجرداً عما ينقصه أو ينغصه مع الوصف بالغزارة والاستمرار قال البغوي: قال كعب الأحبار : نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سبحان نهر عسلهم. وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر . وقال ابن عبد لحكم في فتوح مصر : حدثنا عثمان بن صالح ثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما سأل كعب الأحبار رضي الله عنه: هل تجد لهذا النيل في كتاب الله تعالى خبراً؟ قال: أي والذي فلق البحر لموسى، إني لأجده في يكتاب الله أن الله عز وجل يوحي إليه في كل عام مرتين، يوحي إليه عن جريه أن الله يأمرك أن تجري، فيجري ما كتب الله له ثم يوحي إليه بعد ذلك: يا نيل غر حميداً. حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن كعب الأحبار أنه كان يقول: أربعة أنها من الجنة وضعها الله عز وجل في الدنيا. فالنيل نهر العسل في الجنة، والفرات نهر الخمر في الجنة. وسيحان نهر الماء في الجنة. وجيحان نهر اللبن في الجنة. حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة قالا حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي جنادة الكناني أنه سمع كعباً يقول: النيل في الآخرة عسلاً أغزر ما يكون من الأنهار التي سمى الله عز وجل، ودجلة في الآخرة لبناً أغزر ما يكون من الأنهار التي

سمى الله عز وجل، والفرات خمراً أغزر ما يكون من الأنهار التي سمى الله عز وجل، وجيحان ماء أغزر ما يكون من الأنهار التي سـمى الله وأصـل هذا كله ما في الصـحيح في صـفة الجنة عن أبي هريرة رضـي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم:

»سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة» وقال أبو حيان في حكمة ترتيبها غير ما تقدم: إنه بدئ بالماء الذي لا يستغنى عنه في المشـروبات، ثم بـاللبن إذ كـان يجري مجرى المطعومـات في كثير من أقوات العرب وغيرهم، ثم بالخمر لأنه إذا حصـل الري والمطعوم تشـوفت النفس إلى ما يتلذذ به، ثم بالعسـل لأن فيه الشـفاء في الدنيا مما يعرض من المطعوم والمشـروب- انتهى. وأحسـن منه أنه لما كان السـياق للتعجب في ضـرب المثل لأنه قول لا ينفك عن غرابة بدأ بأنهار الماء لغرابتها في بلادهم وشدة حـاجتهم إليهـا، ولمـا كـان خلوهـا عن تغير أغرب نفاه، ولمـا كـان اللبن أقل فكان جريه أنهاراً أغرب، ثنى به، ولما كان الخمر أعز ثلث به، ولما كان العسل أشرفها وأقلها ختم به، ونبه- مع هذا التذكير بقدرته تعالى- على ما يريد بسبب وبغير سبب فإن هذه المشروبات الثلاثة التي وبعضـها متمحض للشرابية كالخمر وبعضـها في غذائية وهي فيه أغلب، وهو العسل، وبعضـها ينزع إلى كل منهمـا وهو اللبن كلهـا من المـاء مع تمـايزهـا مذاقاً وأثراً في الغذاء والدواء وغير ذلك، فإن الماء أصـل النبات، ومن النبات يكون اللبن والخمر والعسـل بما لا يخفى من الأسـباب، وأما الآخرة فغنية عن الأسـباب لظهور اسـمه الظاهر سـبحانه هناك لأنه لا ابتلاء فيها، وبهذا فهم للترتيب

سـر آخر وهو أنه تعالى قدم الماء لأنه الأصـل لها، وتلاه بأقرب الأشـياء إليه في الشـــرابية والطبع : اللبن، ثم بما هو أقرب إلى اللبن من جهة أنه شراب فقط، ثم بالعسل لأنه أبعدها منه.

ولما كانت الثمار ألذ مستطاب بعد سائغ الشراب قال تعالى: {ولهم فيها} ولما كان أهلها متفاوين في الدرجات فلا تجمع جنان أغلبهم جميع ما في الجنة من الثمار بعض فقال: {من كل الثمرات} أي جميع أصـــنافها على وجه لا حاجة معه من قلة ولا انقطاع.

ولما كان العيش لا يطيب مع الإنصـاف بما يوجب العتب، قال مشـيراً إلى أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره، لأن الرتب متضـــائلة عن رتبته سبحانه: {ومغفرة من ربهم} أي المحسن إليهم بمحو ذنوبهم السالفة أعيانها وأثارها بحيث لا يخشـــون لها عاقبة بعقاب. لا عتاب وعدم بلوغهم إلى ما يحق له من الشكر سبحانه.

ولما أرشـــد هذا الســـياق إلى أن التقدير : أفمن هو في هذا النعيم الأكبر المقيم، بنى عليه قوله : {كمن هو خالد} أي مقيم إقامة لا انقطاع معها، ووحده لأن الخلود يعم من فيها على حد سـواء {في النار} أي التي لا يطفأ لهيبها، لا يفك أسـيرها ولا يؤنس عريبها. ولما كان كل واحد من داخليها له سـقي يخصـه على حسـب عمله ولا يظلم ربك أحداً. كان المؤثر لضـرهم السـقي على الكيفية التي تذكر لا كونه من سـاق معين، بني للمجهول قوله مسنداً إلى ضمير الجمع قوله تعالى: {وسقوا} أي عوض ما ذكر من شراب أهل الجنة {ماء حميماً} أي في غاية الحرارة {فقطع أمعاءهم *} ويمكن أن

تكون الآية من الاحتباك، وذلك أنه تعالى لما قدم أن المؤمنين في جنات تجري من تحتها الأنهار، وأن الكافرين مأواهم النار، وكان التقدير إنكاره على من لم يرتدع للزواجر تنبيهاً على أن عمله عمل من يسوي بين الجنة والنار لأن كون النار جزاء لمثله والجنة جزاء المؤمن صار في حد لا يسوغ إنكاره: أمثل الجنة الموصوفة كمثل النار، ومن هو خالد في الجنة كمن هو خالد في النار- والله الموفق للصواب.

▲ تفسير الآيات رقم [16- 17]

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آَنِفًا
أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16)
وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)}

ولما كان التقدير بعد هذا التمثيل والوصف والتشويق الذي يبهر العقول: فمن الناس من يسمع منك بغاية المحبة والإنصاف فيعليه الله بفهم ما يتلوه واعتقاده والعمل به واعتماده وهم المتقون الذين وعدوا الجنة، عطف عليه قوله تعالى: {ومنهم من يستمع} أي بغاية جهده لعله يجد في المتلو مطعناً يشك به على الضعفاء، وبين تعالى بعدهم بقوله: {إليك} ولما أفرد المستمع نظراً إلى لفظ «من» إشارة إلى قلة المستمع جمع نظراً إلى معناه إشارة إلى كثرة المعرضين الجامدين المستهزئين من المستمعين منهم والسامعين فقال تعالى: {حتى} أي واستمر إجهادهم لأنفسهم بالإصغاء حتى {إذا خرجوا} أي

المستمعون والسامعون جميعاً {من عندك قالوا} أي الفريقان عمى وتعاميا واستهزاء. ولما كان مجرد حصول العلم النافع مسعداً، أشار إلى تعظيمه ببنائه لما لم يسم فاعله فقال تعالى: {للذين أوتوا العلم} أي بسبب تهيئة الله لهم بما آتاهم من صفاء الأفهام لتجردهم عن النفوس والحظوظ وانقيادهم لما تدعوا إليه الفطرة الأولى: {ماذا قال} أي النبي صلى الله عليه وسلم {آنفاً} أي قبل افتراقنا وخروجنا عنه من ساعة- أي أول وقت- تقرب منه، من أنفة الصلاة- بالتحريك، وهو ابتداؤها وأولها، قال أبو حيان: حال، أي مبتدئاً، أي ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه. ورد كونه ظرفاً بأنه تفسير معنى، وأنه لا يعلم أحداً من النحاة عده في الظروف. وقال البغوي: ائتنفت الأمر: ابتدأته، وأنف الشيء أوله، قال مقاتل: وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه استهزاء: ماذا قال محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال ابن عباس رضي الله عنه: وقد سئلت فيمن سئل.

ولما دل هذا من المصغي ومن المعرض على غاية الجمود الدال على غاية الشقاء، أنتج قوله: {أولئك} أي خاصة هؤلاء البعداء من الفهم ومن كل خير {الذين طبع الله} أي الملك الأعظم الذي لا تناهي لعظمه جل وعلا {على قلوبهم} أي فلم يؤمنوا ولم يفهموا فهم الانتفاع لأن مثل هذا الجمود لا يكون إلا بذلك. ولما كان التقدير: إنهم ضلوا حتى صاروا كالبهائم، عطف عليه ما هو من أفعال البهائم فقال: {واتبعوا} أي بغاية جهدهم {أهواءهم *} أي مجانبين لوازع العقل وناهي المروءة، فلذلك هم يتهاونون بأعظم الكلام

ويقبلون على جمع الحطام، فهم أهل النار المشـــــار إليهم قبل آية «مثل الجنة» بأنهم زين لهم سوء أعمالهم.

ولما ذكر ما هم عليه وشنع عليهم أقبح الذكر، ذكر الذين آتاهم العلم فقال: {والذين اهتدوا} أي اجتهدوا باســـتماعهم منك في مطاوعة داعي الفطرة الأولى إلى الوقوع على الهدى بالصدق في الإيمان والتسليم والإذعان بأنواع المجاهدات {زادهم} أي الله الذي طبع على قلوب الجهلة {هدى} بأن شـرح صـدورهم ونورها بأنوار المشـاهدات فصـارت أوعية للحكمة «إن الذين آمنوا وعملوا الصـالحات يهديهم ربهم بإيمانهم» {وآتاهم تقواهم *} أي بين لهم ما هو أهل لأن يحذر ووفقهم لاجتنابه مخالفة للهوى، فهم القسـم الأول من آية توطئة المثل {الذين هم على بينة من ربهم} ومعنى الإضـــافة أنه آتى كلاً منهم منها بحســـب ما يقتضـــيه حاله، قال ابن برجان: التقوى عمل الإيمان كما أن أعمال الجوارح عمل الإسلام– انتهى.

▲ تفسير الآيات رقم [18– 19]

{فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّـــاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْـــرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18)

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْـــتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)}

ولما كان أشـــــد ما يتقى القيامة التي هم بها مكذبون، ســـــبب عن اتباعهم الهوى قوله تعالى: {فهل ينظرون} أي ينتظرون، ولكنه جرده إشارة إلى شدة

قربها {إلا الساعة} ولما كان كأنه قيل: ما ينتظرون من أمرها؟ أبدل منها قوله: {أن تأتيهم} أي تقوم عليهم، وعبر بالإتيان زيادة في التخويف {بغتة} أي فجاءة من غير شعور بها ولا استعداد لها.

ولما دل ذلك على مزيد القرب، وكان مجيء علامات الشيء أدل على قربه مع الدلالة على عظمته، قال معللاً للبغتة: {فقد} ودل على القوة بتذكير الفعل فقال: {جاء أشراطها} أي علاماتها المنذرات بها من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم «بعثت أنا والساعة كهاتين» انشقاق القمر المؤذن بآية الشمس في طلوعها من مغربها وغير ذلك، وما بعد مقدمات الشيء إلا حضوره.

ولما كان المجيء من أهوالها تذكرها قبل حلولها للعمل بما يقتضيه التذكر، وكانت إذا جاءت شاغلة عن كل شيء، سبب عن مجيئها قوله تعالى: {فأنّى} أي فكيف ومن أين {لهم إذا جاءتهم} أي الساعة وأشراطها المعينة لها مثل طلوع الشمس من مغربها {ذكراهم *} لأنهم في أشغل الشغل ولو فرغوا لما تذكروا فعملوا ما أفاد لفوات وقت الأعمال وشرطها، وهو العمل على الإيمان بالغيب، وهكذا ساعة الإنسان التي تخصه وهي موته وأشراطها الجاثة على الذكرى وهو المرض والشيب ونحو ذلك، ومن أشراطها المعينة لها التي لا ينفع معها العمل الوصول إلى حد الغرغرة.

ولما علم بذلك أن الذكرى غير نافعة إذا انقضت هذه الدار التي جعلت للعمل أو جاءت الأشراط المحققة الكاشفة لها، سبب عنه أمر أعظم الخلق وأشرفهم وأرقاهم وأجملهم صلى الله عليه وسلم تكويناً ليكون لغيره تكليفاً فقال

تعالى: {فاعلم أنه} أي الشأن الأعظم الذي {لا إله إلا الله} أي انتفى انتفاء عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما تكون عالماً إذا كان نافعاً وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما يقتضيه وإلا فهو جهل صرف، وهذا العلم يفيد أنه لا بد من قيام الساعة لأن الإله وعد بذلك وهو متصف بالكمال ولا شريك له يمنعه من إنجاز وعده. قال القشيري: والعبد يعلم أولاً ربه بدليل وبحجة فعلمه بنفسه ضروري وهذا هو أصل الأصول، وعليه بني كل علم استدلالي، ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان وكثرة الحجج وتناقص علمه بنفسه بغلبات ذكره لله بقلبه، فإذا انتهى إلى حال المشاهدة واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار علمه في تلك الحالة ضرورياً ويقل إحساسه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلال وكأنه غافل عن نفسه أو ناس لنفسه، ويقال: الذي رأى البحر غلب عليه ما يأخذه في الرؤية للبحر عن ذكر نفسه فإذا ركب البحر قوي هذا الحال، فإذا غرق في البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومستهلك، ولهذه الكلمة من الأسرار ما يملأ الأقطار منها أنها بكلماتها الأربع مركبة من ثلاثة أحرف إشارة إلى الوتر الذي هو الله سبحانه وتعالى والشفع الذي هو الخلق أنشأه تعالى أزواجاً، ومنها حرف لساني وحرفان حلقيان: الهاء والألف، غير أن الألف عبر عنها بمظهرها وهو الهمزة ظاهراً مرتين وخفياً في أداة التعريف في الابتداء مرة، وذكرت بلفظها أربع مرات، فتلك سبع هي أتم العدد لذلك وبني الخلق عليه، فالسماوات سبع والأراضي كذلك سبع إشارة إلى أن الإله الحق

الذي هو غيب محض إنما علم بالتنزيل بأفعاله، فهي وصـــــلة إلى معرفته وهي منقســـمة إلى علوي وســـفلي كما أن الألف التي هي كالغيب لأنها لا يمكن النطق بها ابتداء نزلت في مظهر الهمزة التي تكررت في هذه الكلمة مرتين في مقابلة الكونين العلوي والسـفلي وبينهما ما لا نعلمه مما خفي عنا كما خفيت همزة الوصل.

وعبر في الأمر بهذه الكلمة بالعلم إعلاماً بأن عمل القلب بها هو العمدة العظمى لكن لما كانت حروفها حلقياً ولسـانياً كان في ذلك إشـارة إلى أنه لا يكفي في أمرها إلا إذعان الباطن ومطابقة الظاهر الذي هو اللســـــان، فهو ترجمان القلب، ومتى لم يطابق اللسان القلب حيث لا مانع كان صاحبه من أهل آية الصــافات وأحرفها اللفظية أربعة عشــر حرفاً على عدد الســماوات والأرض الدالة على الذات الأقدس الذي هو غيب محض والمقصـــود منها مســـمى الجلالة الذي هو الإله الحق ســـبحانه وتعالى والجلالة الدالة عليه خمسة أحرف على عدة دعائم الإسلام الخمس: ووتريته دلالة على التوحيد، ولم يجعل فيها شـــيئاً شـــفهياً لتمكن ملازمتها لكونها أعظم مقرب إلى الله وأقرب موصل إليه مع الإخلاص، فإن الذاكر بها يقدر على المواظبة عليها ولا يعلم جليســـه بذلك أصـــلاً، لأن غيرك لا يعلم ما في وراء شـــفتيك إلا بإعلامك، وكما دل الكلام على التوحيد بهذه الكلمة صـــريحاً دل على كلمة الرسـالة التي لا ينفع التوحيد إلا بها تلويحاً بتسـمية السـورة «سـورة محمد»، فهي القتال لأنه أمر صلى الله عليه وسلم أن يقاتل الناس حتى يصرحوا بما صرحت به السورة من كلمة التوحيد، وهي سورة محمد صلى الله عليه وسلم

لأن التوحيد لا ينفع بدون الشـــهادة له بالرســالة، وبين الكلمتين مزيد اتفاق يدل على تمام الاتحاد والاعتناق، وذلك أن أحرف كل منهما إن نظرنا إليها خطاً كانت اثني عشـــرة حرفاً على عدد أجزاء الســـنة يكفر كل حرف منها شـــهراً، وإن نظرنا إليها نطقاً كانت أربعة عشـــر حرفاً لملأ الخافقين نوراً وعظمة ومهابة وجلالة واحتشاماً، وإن نظرنا إليها بالنظرين معاً كانت خمسة عشـر لا يوقفها عن ذي العرش خالق الكونين موقف، وهو سـر غريب دال على الحكم الشـــرعي الذي هو عدم انفكاك إحداهما عن الأخرى، فمن لم يجمعهما اعتقاده لم يقبل إيمانه، وقدمت هذه السـورة في هذا سـابقة لأن لها السـبق وذكرت الأخرى في الفتح تالية، وسـميت سـورة هذه بالقتال وسـورة الكلمة المحمدية بالفتح إشـارة إلى أنه ما قاتل أحد عليهما مع الإخلاص إلا فتح عليه ولا يقدر أحد على مخالفته مع مناصـــبته إلا نفاقاً على وجه الذل والاضطراب.

ولما كان حصـــول التوحيد الذي هو كمال النفس موجباً للإجابة كما في حديث أبي هريرة رضـــي الله تعالى عنه عند الترمذي وأبي يعلى «ما من مؤمن يدعو الله بدعوة إلا اســـتجيب له ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم» الحديث، قال معلماً أنه يجب على الإنســان بعد تكميل نفســه السـعي في تكميل غيره ليحصـل التعاون على ما خلق العباد له، {واسـتغفر} أي اطلب الغفران من الله بعد العلم بأنه لا كفوء له بالدعاء له وبالاجتهاد في الأعمال الصــالحة {لذنبك}، وهو كل مقام عال ارتفعت عنه إلى أعلى منه، وأوجده أنت من نفسك من أساء إليك لتكثر أبتاعك، فإن الاستقامة مهيئة للإمامة.

ولما كان تكميل النفس مرقياً إلى تكميل الغير ليكون له مثل أجره، قال تعالى مبيناً لهذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة معيداً للجار معبراً بالإيمان والوصف إيذاناً بأن أعلى الأمة محتاج إلى ذلك، لأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره، وهذا مشـــرفاً لهذه الأمة حيث أمر الشـــفيع المجاب الدعوة بالاستغفار لهم وهو بالدعاء والحث على الاجتهاد في الأعمال الصالحة، حاذفاً المضاف إشارة إلى الاحتياج إلى المغفرة في كل حال لما للإنسان من النقصان بالخطأ والنسيان: {وللمؤمنين والمؤمنات} أي الراسخين في الإيمان لأنهم أحق الناس بذلك منك لأن ما عملوا من خير كان لك مثل أجره، ولا يخلو أحد منهم من تقصير في المعارف الإلهية والعمل بموجبها أو هفوة.

ولما كان معرفة من يذنب ومن لا يذنب متوقفة على إحاطة العلم، قال عاطفاً على ما تقديره: فالله يعلم حركاتكم وسكناتكم سراً وجهراً ويعلم أنكم لا بد أن تعملوا ما جبلكم عليه من ذنب وهو يغفر لمن أراد ممن يســـعى في كمال نفســـه وتكميل غيره بغســـل الذنوب، بالرجوع إلى طاعة علام الغيوب {والله} المحيط بجميع صفات الكمال {يعلم متقلبكم} أي تقلبكم ومكانه وزمانه {ومثواكم *} أي موضع سكونكم وقراره للراحة وكل ما يقع فيه من الثواء في وقته- في الدنيا والآخرة من حين كونكم نطفاً إلى ما لا آخر له.

▲ تفسير الآيات رقم [20– 22]

{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20)
طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21)
فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22)}

ولما كان دليل على إحاطة العلم، علم ما أبطنه الإنسان ولا سيما إن كان مخالفاً لما أظهره، قال دالاً على إحاطة علمه بإظهار أسرار المنافقين عاطفاً على {ومنهم من يستمع إليك}: {ويقول} على سبيل التجديد المستمر {الذين آمنوا} أي ادعوا ذلك بألسنتهم وفيهم الصادق والمنافق دالين على صدقهم في إيمانهم بالتحريض على طلب الخير بتجدد الوحي الذي هو الروح الحقيقي: {لولا نزلت} على سبيل التدريج، وبناه للمفعول دلالة على إظهار أنهم صاروا في صدقهم في الإيمان اعتقادهم أن التنزيل لا يكون إلا من الله بحيث لا يحتاجون إلى التصريح به {سورة} أي سورة كانت لنسر بسماعها ونتعبد بتلاوتها ونعمل بما فيها كائناً ما كان، ويستمر الوحي فينا متجدداً مع تجدد الزمان ليكون ذلك أنشط لنا وأدخل في تحريك عزائمنا {فإذا أنزلت سورة} أي قطعة من القرآن تكامل نزولها كلها تدريجاً أو جملة، وزادت على مطلوبهم بالحس بأنها {محكمة} أي مبينة لا يلبس شيء منها بنوع إجمال ولا ينسخ لكونه جامعاً للمحاسن في كل زمان ومكان {وذكر فيها القتال}

بـأيّ ذكر كـان، والواقع أنـه لا يكون إلا ذكراً مبينـاً أنـه لا يزداد إلا وجوبـاً وتأكداً حتى تضـع الحرب أوزارها، قال البغوي: وكل سـورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشـد القرآن على المنافقين. وهو مروي عن قتادة {رأيت} أي بالعين والقلب {الذين في قلوبهم مرض} أي ضـعف في الدين أو نفاق من الذين أقروا بالإيمان وطلبوا تنزيل القرآن وكانوا قد أقسـموا بالله جهد أيمانهم: لئن أمرتهم ليخرجن {ينظرون إليك} كراهة لما نزل عليك بعد أن حرضوا على طلبه {نظر المغشي عليه} ولما كان للغشي أسباب، بين أن هذا أشدها فقال تعالى: {من الموت} الذي هو نهاية الغشي فهو لا يطرف بعينه بل هو شاخص لا يطرف كراهة للقتال من الجبن والخور.

ولما كان هذا أمراً منابذاً للإنسـانية لأنه مباعد للدين والمروءة، سـبب عنه أعلى التهديد فقال متوعداً لهم بصورة الدعاء بأن يليهم المكروه: {فأولى} أي أشـد ميل وويل وانتكاس وعثار موضـع لهم في الهلكة كائن {لهم *} أي خاص بهم، وفسرته بذلك لما تقدم في آخر الأنفال من أن مادة «ولى» تدور على الميل، فإذا كانت على صـيغة أفعل التفضـيل– وهو قول الأكثر– جاءت الشدة، قال الأصمعي: إنه فعل ماضٍ أي قاربهم ما يهلكهم وأولادهم الله الهلاك، وقال الرضي في باب المعرفة والنكرة: إنه علم للوعيد وفيه وزن الفعل فلذا منع من الصرف، وليس بأفعل تفضيل ولا أفعل فلاً ولا اسم فعل لأن أبا زيد حكى لحاق تاء التأنيث له فقالوا: أولاة الآن– كأرملة وهو من وله الشـر أي قرنه حال، وقبوله للتاء لا يضـر الوزن، لأن ذلك في علم آخر.

ولما علم بما ذكر من التسبب أن هذا الدعاء عليهم لما تقدم من سوء أدبهم في مقالهم، وقبح ما ظهر من فعالهم، حصـل التشـوف إلى ما ينبغي لهم، فقال تعالى على طريق النشر المشوش: {طاعة} أي منهم {وقول معروف} أي بالتسـليم والإذعان وحسـن الانقياد خير لهم مما أظهروا من المحبة في الطاعة وما كشـف حالهم عنه من الكراهة، ونكر الاسمين ليكونا صـالحين للتعظيم وما دونه، ثم سبب عنهما قوله مسنداً إلى الأمر ما هو لأهله تأكيداً لمضـمون الكلام: {فإذا عزم الأمر} أي فإذا أمر بالقتال الذي ذكر في أول السورة وغيره من الأوامر أمراً مجزوماً به معزوماً عليه {فلو صدقوا الله} أي الملك الأعظم المحيط قدرة وعلماً في قولهم الذي قالوه في طلب التنزيل {لكان} صدقهم له {خيراً لهم *} أي من تعللهم وتسللهم عنه لواذاً على تقدير التنزيل في تسليم أن في جماحهم عن الأمر وتقاعدهم عنه نوع خير، ويجوز أن يكون «خير» اسماً لا للتفضيل ليفهم أن كذبهم شر لهم.

ولما كان هذا تبكيتاً لهم من أجل فتورهم عن أمر الله، سبب عن ذلك الفتور بيان ما يحصـل منه من عظيم الفسـاد ويتأثر به من خراب البلاد وشـتات العباد في معرض سـؤال في أسـلوب الخطاب بعد التبكيت والتهديد في أسـلوب الغيبة تنبيهاً على تناهي الغضـب وبلوغه الغاية فقال تعالى: {فهل عسـيتم} أي فتسـبب عن تسـرعكم إلى السـؤال في أن يأمركم الملك بما يرضـيه، فإذا أجابكم فرحمكم بما يعلم أنه أصـلح الأشـياء لكم وهو الجهاد كرهتموه ووجهتم منه وقعدتم عنه أن يقال لكم لما يرى منكم من المخايل الدالة على ضـعف الإيمان: هل يمكن عندكم نوع إمكان وتتوقعون شيئاً من

توقع أن يكون حالكم جديراً وخليقاً لتغطية علم العواقب عنكم فتخافون من أنفسكم.

ولما كان المقام لذم الإعراض عن الأمر، فصـــل بين «عســـى» وخبرها بشـــرطية معبر فيها بالتولي بصـــيغة التفعل إشـــارة مع نهاية الذم إلى أن المعرض عن أمر الله معرض عما تدعوه الفطرة الأولى القويمة والعقل السديد إلى حسنه، فهو لا يعرض عنه إلا بمجاهدة منه لنفسه فقال تعالى: {إن توليتم} أي بأنفســـكم عن الجهاد الذي أمركم به ربكم الذي عرفكم من فوائده ما لا مزيد عليه مما لا يتركه معه عاقل ولا يتخيل تركه إلا على سبيل الفرض- بما أشارت إليه أداة الشرط- أو حصلت توليتكم بتحصيل محصـــل أوجبها لكم وزينها في أعينكم حتى فعلتموها، وهذا المعنى الثاني هو المراد ببنائه للمجهول في رواية رويس عن يعقوب {أن تفســـدوا} أي توقعوا الإفساد العظيم الذي يستمر تجديده منكم {في الأرض} بقتال يكرهه الله ويسخطه ويغضب أشد غضب على فاعله وتكونوا في غاية الجرأة عليه، فإن الذي رحمكم بإنزال ما أنزل حكم بأن من جبن عما يرضـــيه رغبة في الآخرة اجترأ على ما يسخطه حباً في الدنيا، وقد كنتم في الجاهلية على ذلك في الغارة من بعضـــكم على بعض ونحو ذلك {وتقطعوا} تقطعياً عظيماً شديداً كثيراً منتشراً كبيراً {أرحامكم *} فتكونوا بذلك أعزة على المؤمنين كما كنتم أذلة على الكافرين، وأقل ما في إعراضكم خذلانكم للمؤمنين المجاهدين بما قد يكون سبباً لظهور الكافرين عليهم فتكونوا بذلك قد جمعتم بين قطيعة أرحامهم وفقدكم لما كان يصـــل إليكم من منافعهم، فإن كففتم بعدهم عن

قتلهم كنتم مع ما فاتكم من خيرهم أجبن الناس وأرضاهم بالعار، وإن تعاطيتم الأخذ بثأرهم كنتم كمن أخذ في فعل ما أمر به بعد فواته وأن له ذلك، وقد علم من هذا أن من أمر بالمعروف وجاهد أهل المنكر أمن الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم، ومن تركه وقع فيهما، ويمكن أن يكون «توليتم» من ولاية الأمر، فتكون الآية مشيرة إلى ولاية الفجرة ومنذرة بذلك أن اصنع الأمر بالمعروف، وقد وقع ذلك وشوهد ما ابتنى عليه من الفساد والقطيعة، وعزائم الأنكاد وسوء الصنيعة.

▲ تفسير الآيات رقم [23– 26]

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23)
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)
إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25)
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26)}

ولما بين لهم ما يكون ممن تثاقل عن أمر الله، لأن الملك لا يطرق احتمالاً في شيء إلا وهو واقع فرقاً بين كلامه وكلام غيره، فكيف بملك الملوك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً، بين حالهم الذي أنتج لهم ذلك، فقال ملتفتاً عنهم إيذاناً بالغضب مخاطباً لمن جبل على الشفقة على خلق الله والرحمة لهم إعلاماً له بأن هؤلاء قد تحتم شقاؤهم فليسوا بأهل للشفاعة فيهم ولا

للأســى عليهم: {أولئك} أي البعداء البغضــاء {الذين لعنهم الله} أي طردهم أشــد الطرد الملك الأعظم لما ذكر من إفســادهم وتقطيعهم؛ ثم ســبب عن لعبهم قوله تعالى: {فأصـمهم} عن الانتفاع بما يسـمعون {وأعمى أبصـارهم *} عن الارتفاق بما يبصـرون، فليس سـماعهم سـماع ادكار، ولا إبصـارهم إبصار اعتبار، فلا سماع لهم ولا إبصار.

ولما أخبر بذلك فكان ربما ســأل من لا يعي الكلام حق وعيه عن الســبب الموجب للعن المسـبب للصــم والعمى، أجابه بقوله منكراً موبخاً مظهراً لتاء التفعل إشــارة إلى أن المأمور به صـــرف جميع الهمة إلى التأمل: {أفلا يتدبرون} أي كل من له أهلية التدبر بقلوب منفتحة منشرحة ليهتدوا إلى كل خير {القرآن} بأن يجهدوا أنفسهم في أن يتفكروا في الكتاب الجامع لكل خير الفـارق بين كـل ملبس تفكر من ينظر في أدبـار الأمور ومـاذا يلزم من عواقبها ليعلموا أنه لا عون على الإصـــلاح في الأرض وصـــلة الأرحام والإخلاص لله في لزوم كل طاعة والبراءة من كل معصـــية مثل الأمر بالمعروف من الجهاد بالسيف وما دونه، وربما دل إظهار التاء على أن ذلك من أظهر ما في القرآن من المعاني، فلا يحتاج في العثور عليه إلى كبير تدبر – والله أعلم.

ولما كان الاســـتفهام إنكارياً فكان معناه نفياً، فهو لكونه داخلاً على النفي نفي له فصـــار إثباتاً، فكان كأنه قيل: هل يجددون التدبر تجديداً مســـتمراً لترق قلوبهم به وتنير بصائرهم له، فيكفوا عن الإفساد والتقطيع، عادله بقوله مشـــبهاً للقلوب بالصـــناديق دالاً على ذلك التشـــبيه بذكر ما هو مختص

بالصـــناديق من الأقفال: {أم على قلوب} من قلوب الغافلين لذلك، ونكرها لتبعيضـها وتحقيرها بتعظيم قسـوتها {أقفالها *} أي الحقيقة بها الجديرة بأن تضـــاف إليها، فهي لذلك لا تعي شـــيئاً ولا تفهم أمراً ولا تزداد إلا غباوة وعناداً، لأنها لا تقدر على التدبر، قال القشـيري: فلا تدخلها زواجر التنبيه ولا ينبسط عليها شعاع العلم، فلا يحصل لهم فهم الخطاب، والباب إذا كان مقفلاً فكما لا يدخل فيه شيء فلا يخرج ما فيه، فلا كفرهم يخرج ولا الإيمان الذي يدعون إليه يدخل- انتهى. والإضـافة تشـعر بأن بعض المتولين على قلوبهم أقفال، لكن ليست متمكنة فيها، فهو سبحانه يفتحها بالتوبة عليهم إذا أراد، وأما الأولون فلا صـــلاحية لهم، وفي هذه الآية أعظم حاث على قبول أوامر الله لا سـيما الجهاد في سـبيله وأشـد زاجر عن الإعراض عنه لأن حاصلها أنه لعن من أعرض عنه لكونه لا يتدبر القرآن مع وضوحه ويسره ليعلم فوائد الجهاد الداعية إليه المحببة فيه، فكان كأن قلبه مقفل، والآية من الاحتباك: ذكر التدبر أولاً دليلاً على ضـــده ثانياً، والأقفال ثانياً دليلاً على ضدها أولاً، وسره أنه ذكر نتيجة الخير الكافلة بالسعادة أولاً وسبب الشر الجامع للشقاوة ثانياً.

ولما أخبر سـبحانه وتعالى بأقفال قلوبهم، بين منشـأ ذلك، فقال مؤكداً تنبهاً لمن لا يهتم به على أنه مما ينبغي الاهتمام بالنظر فيه ليخلص الإنســان نفسـه منه، وتكذيباً لمن يقال: إن ذلك حسـن: {إن الذين ارتدوا} أي عالجوا نفوسهم في منازعة الفطرة الأولى في الرجوع عن الإسلام، وهو المراد بقوله:

{على أدبارهم} أي من أهل الكتاب وغيرهم، فقلبوا وجوه الأمور إلى ظهورها، فوقعوا في الضلال فكفروا.

ولما كان الذي يلامون عليه ترك ما أتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم مما أوحاه الله سبحانه إليه من الشريعة، لا ما في غرائزهم من الملة التي يكفي في الهداية إليها نور العقل، وكان الذم لاحقاً بهم ولو كان ارتدادهم في أدنى وقت، أثبت الجار فقال: {من بعد ما تبين} غاية البيان الذي لا خفاء معه بوجه وظهر غاية الظهور {لهم} بالدلائل التي هي من شدة ظهورها غنية عن بيان مبين {الهدى} أي الذي أتاهم به رسولنا صلى الله عليه وسلم.

ولما كانوا قد أحرقوا بذلك أنفسهم وأبعدوها به غاية البعد عن كل خير، عبر عن المغوي بما يدل على ذلك فقال تعالى: {الشيطان} أي المحترق باللعنة البعيد من الرحمة {سول} أي حسن {لهم} بتزيينه وإغوائه الذي حصل لهم منه استرخاء في عزائمهم وفتور في هممهم فجروا معه في مراده في طول الأمل، والإكثار من مواقعه الزلل والأماني من جميع الشهوات والعلل، بعد أن زين لهم سوء العمل، بتمكين الله له منهم، وهذا لما علم سبحانه منهم حال الفطرة الأولى {وأملى لهم *} أي أطال في ذلك ووسع بتكرار ذلك عليهم على تعاقب الملوين ومر الجديدين حتى نسوا المواعظ وأعرضوا عن الذكر هذا على قراءة الجماعة بفتح الهمزة واللام، وأما على قراءة البصريين بضم الهمزة وكسر اللام فالمراد أن الله تعالى هو المملي- أي الممهل- لهم بإطالة العمر وإسباغ النعم، وتسهيل الأماني والحلم، عن المعاجلة بالنقم،

حتى اغتروا، وهي أيضـــاً موافقة لقوله تعالى {ســـنســـتدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين} [القلم: 45]، وأما في قراءة أبي عمرو بفتح اليـاء فهو فعـل مـاض مبني للمفعول، ودل على أن المملي هو الله سبحانه وتعالى قراءة يعقوب بإسكان الياء على أنه مضارع همزته للمتكلم.

ولما بين تسليطه الشيطان عليهم، بين سببه فقال: {ذلك} أي الأمر البعيد من الخير وما دل عليه صـريح العقل {بأنهم} أي بسـبب أن هؤلاء المتولين {قالوا للذين كرهوا ما} أي جميع ما {نزل الله} أي الملك الأعظم على التدريج بحســـب الوقائع تنزيلاً فيه إعجاز الخلق في بلاغة التركيب مع فصـــاحة المفردات وجزالتها مع الســـهولة في النطق والعذوبة في الســـمع والملاءمة للطبع كما يشـــهد به كل ذوق من الأغبياء والأذكياء على تباينهم في مراتب الغباوة والذكاء، وإعجاز آخر لهم في رصـــانة المعنى وحكمته، وثالث في مطابقته للحال الذي اقتضـــى نزوله مطابقة يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها، ورابع بنظمه مع ما نزل قبله من الآيات، لا على ترتيب النزول، بل على ما اقتضـــته الحكمة التي تتضـــاءل دونها الأفكار، وتولى خاســـئة من جلالتها على الأدبار، بصـــائر أولي الأبصـــار، وهؤلاء المقول لهم هذا الكلام هم- والله أعلم- المصـــــارحون بالكفر، قالوا لهم بعد هذه الأدلة من الإعجازات، وما تقدمها من الآيات البينات الواضحات: {سنطيعكم} بوعد صادق لا خلق فيه {في بعض الأمر} وهو القتال في ســبيل الله الذي تقدم أنهم عند نزول سـورة يذكر بها يصـيرون كالذي يغشـى عليه من الموت، فأنتم في أمان من أن نقاتلكم أبداً، فإنا إنما أسلمنا للأمان على دمائنا وأموالنا، والذي نحبه مما

ينزل هو التأمين لمن أقر بكلمة الإسـلام والقناعة منه بالظاهر والوعد العام بالتبسـط في البلاد والتوسـعة في الأرزاق ونحو ذلك، فكانوا بذلك كفرة فإن الدين لا يتجزأ، فمن أضـاع من أصـوله شـيئاً فقد أضـاعه كله، والتقييد بالبعض يفهم أنهم لا يطيعونهم في البعض الآخر، وهو إظهار الإسـلام والتصور بصورة المسالمة، وذلك كله بأن الله تعالى جبلهم جبلة هيأهم فيها لمثل هذا، فلما قالوه مضـيعين لما من عليهم من غريزة العقل اسـتحقوا في مجاري عاداتنا لاختيارهم طاعة العدو- مع تعييب علم العواقب عنهم- أن يخذلوا ويسلط عليهم ليكون أخذهم في الظاهر ممن أطاعوه في الباطن، ولو أنهم اسـتمسـكوا بدينهم وكانوا مع أهله يداً على من سـواهم لم يقدر عليهم عدو، ولا طرقتهم طارقة يكرهونها سوء.

ولما كان من له أدنى عقل لا يخون إلا إذا ظن أن خيانته تخفي ليأمن عاقبتها، صور قباحة ما ارتكبوه فقال: {والله} أي قالوا ذلك والحال أن الملك الأعظم المحيط بكل شيء علماً وقدرة {يعلم} على مر الأوقات {إسرارهم *} أي كلها هذا الذي أفشـاه عليهم وغيره مما في ضـمائرهم مما لم يبرز على ألسـنتهم، ولعلهم لم يعلموه هم فضـلاً عن أقوالهم التي تحدثت بها ألسـنتهم فبان بذلك أنه لا أديان لهم ولا عقول ولا مروءات.

▲ تفسير الآيات رقم [27– 30]

{فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27)
ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28)
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29)
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30)}

ولما بين تعالى إحاطة علمه بهم، أتبعه إحاطة قدرته فقال تعالى مسبباً عن خيانتهم وهم في القبضة بما لا يخفى مما يريدون به صيانة أنفسهم عن القتل معبراً بالاستفهام تنبيهاً على أن حالهم مما يجازون به على هذا الاستحقاق له من البشاعة والقباحة والفظاعة ما يحق السؤال عنه لأجله فقال: {فكيف} أي حالهم {إذا توفتهم الملائكة} أي قبضت رسلنا وهم ملك الموت وأعوانه أرواحهم كاملة، فجازتها إلى دار الجزاء مقطوعة عن جميع أسبابهم وأنسابهم فلم ينفعهم تقاعدهم عن الجهاد في تأخير آجالهم، وصور حالهم وقت توفيهم فقال: {يضربون} أي يتابعون في حال التوفية ضربهم {وجوههم} التي هي أشرف جوارحهم التي جبنوا عن الحرب صيانة لها عن ضرب الكفار. ولما كان حالهم في جبنه مقتضياً لضرب الأقفاء، صوره بأشنع صوره فقال: {وأدبارهم *} التي ضربها أذل ما يكون على هوان المضروب وسفالته ثم تتصل بعد ذلك آلامهم وعذابه وهوانهم إلى ما لا آخر له.

ولما كان كفران النعيم يوجب مع إحلال النعم إبطال ما تقدم من الخدم قال : {ذلك} أي الأمر العظيم الإهانة من فعل رسلنا بهم {بأنهم اتبعوا} أي عالجوا فطرهم الأولى في أن تبعوا عناداً منهم {ما أسـخط الله} أي الملك الأعظم وهو العمل بمعاصيه من موالاة أعدائه ومناواة أوليائه وغير ذلك.

ولما كان فعل ما يسخط قد يكون مع الغفلة عن أنه يسخط، بين أنهم ليسوا كذلك فقال تعالى: {وكرهوا} أي بالإشراك {رضوانه} بكراهتهم أعظم أسباب رضاه وهو الإيمان، فهم لما دونه بالقعود عن سائر الطاعات أكره، لأن ذلك ظاهر غاية الظهور في أنه مسـخط ففاعله مع ذلك غير معذور في ترك النظر فيه {فأحبط} أي فلذلك تسبب عنه أنه أفسد {أعمالهم *} الصالحة فأسقطها بحيث لم يبق لها وزن أصلاً لتضييع الأساس من مكارم الأخلاق من قرى الضيف والأخذ بيد الضعيف والصدقة والإعتاق وغير ذلك من وجوه الإرفاق.

ولما صور سبحانه ما أثرته خيانتهم بأقبح صوره، فبان به أنه ما حملهم على ما فعلوه إلا جهلهم وسفاهتهم، فأنتج إهانتهم بالتبكيت فقال عاطفاً على ما تقديره: أعلموا حين قالوا ما يسخطنا أنا نعلم سرهم ونجواهم، وإن قدرتنا محيطة بهم ليكونوا قد وطنوا أنفسـهم على أنا نظهر للناس ما يكتمونه ونأخذهم أخذاً وبيلاً فيكونوا أجهل الجهلة: {أم} حسبوا لضعف عقولهم- بما أفهمه التعبير بالحسبان- هكذا كان الأصل، ولكنه عبر بما دل على الآفة التي أدتهم إلى ذلك فقال تعالى: {حسب الذين في قلوبهم} التي إذا فسدت فسد جميع أجسادهم {مرض} أي آفة لا طب لها حسباناً هو في غاية الثبات

بما دل عليه التأكيد في قوله سبحانه وتعالى: {أن لن يخرج الله} أي يبرز من هو محيط بصفات الكمال للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رضوان الله عليهم على سبيل التجديد والاستمرار {أضغانهم *} أي ميلهم وما يبطنونه في دواخل أكشاحهم من اعوجاجهم الدال على أحقادهم، وهي أنهم كاتمون عداوة في قلوبهم مصرون عليهم يترقبون الدوائر لانتهاز فرصتها، ليس الأمر كما توهموا بل الله يفضحهم ويكشف تلبيسهم.

ولما علم من ذلك إحاطة علمه سبحانه وتعالى وشمول قدرته علم ما له سبحانه من باهر العظمة وقاهر العزة، فنقل الكلام إلى أسلوبها تنبيهاً على ذلك عاطفاً على ما تقديره: خابت ظنونهم وفالت آراؤهم فلنخرجن ما يبالغون في ستره حتى لا ندع منه شيئاً يريدون إخفاءه إلا كشفناه وأبديناه للناس وأوضحناه، فإنا نعلمهم ونعلم ذلك منهم من قبل أن نخلقهم، فلو نشاء لفضحناهم حتى يعرفهم الناس أجمعون، فلا يخفى منهم أحد على أحد منهم فقال تعالى: {ولو} ويجوز أن تكون واو للحال أي أم حسبوا ذلك والحال أنا لو {نشاء} أي وقعت منا مشيئة الآن أو قبله أو بعده. ولما كانوا لشدة جهلهم لا يتصورون أن سرائرهم كلها معلومة مقدور على أن يعلمها بشر مثلهم، أكد قوله: {لأريناكهم} أي رؤية تامة كاشفة لك الغطاء عنهم {فلعرفتهم} أي فتعقبت رؤيتك إياهم معرفتك لهم أنت بخصوصك {بسيماهم} أي بسبب علاماتهم التي نجعلها عالية عليهم غالبة لهم في إظهار ضمائرهم عليها لا يقدرون على مدافعتها بوجه، ولم يذكرهم سبحانه بأسمائهم إبقاء على قراباتهم المخلصين من الفتن.

ولما انقضى ما علق بالمشيئة مما كان ممكناً له في الماضي وغيره، عطف عليه ما يجزه له مما كشف من أمرهم في المستقبل فقال مؤكداً لاستبعاد من يســـتبعد ذلك منهم أو ممن شـــاركهم في مرض القلب من غيرهم فقال في جواب قسم محذوف دل عليه باللام: {ولتعرفنهم} أي بعد هذا الوقت معرفة تتجدد بحسب تجدد أقوالهم مستمرة باستمرار ضمائرهم الخبيثة وإسرارهم {في لحن القول} أي الصـادر منهم، ولحنه فحواه أي معناه ومذهبه وما يدل عليه ويلوح به من مثله عن حقائقه إلى عواقبه وما «يؤول إليه» أمره مما يخفى على غيرك، وقال ابن برجان: هو ما تنحوا إليه بلسانك أي تميل إليه ليفطن لك صـاحبك وتخفيه على من لم يكن له عهد بمرادك، وعلى القول بالتحقيق فلحن القول ما يبدو من غرض الكلام وخفيات الخطاب وسـياق اللفظ وهيئة الســـحنة حال القول وإن لم يرد المتكلم أن يظهره ولكنه على الأغلب يغلبه حـالاً، فلا يقدر على كل كتمه وإن كـان في تكليمه معتمداً على ذلك، وحقيقته حال يلوح عن السر وإظهار كلام الباطن يكاد يناقض كلام اللسـان بحال خفية ومعان يقف عليها باطن التخاطب وقال:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا *** واللحن يعرفه ذوو الألباب

وقال آخر:

عيناك قد دلتا عيناي منك على *** أشياء لولاهما ما كنت أدريها

وقال أبو حيان: كانوا اصطلحوا على الفاظ يخاطبون بها الرسول صلى الله عليه وســلم مما ظاهره حســن ويعنون به القبيح، وقال الأصــبهاني: وقيل للمخطئ: لاحن لأنه يعدل بالكلام عن الصـــواب: وقال البغوي: للحن

وجهان: صواب وخطأ، فالفعل من الصواب لحن يلحن لحناً فهو لحن- إذا فطن للشيء، والفعل من الخطأ لحن يلحن لحناً فهو لاحن، والأصل فيه إزالة الكلام عن جهته، قال: فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا عرفه، وقال الثعلبي: وعن أنس رضي الله عنه: ما خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في غزوة وفيها سبعة من المنافقين يشكرهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا على جبهة كل واحد منهم مكتوب «هذا منافق» ومثل ابن عباس رضي الله عنهم بقوله: «ما لنا إن أطعنا من الثواب» قال: ولا يقولون: ما لنا إن عصينا من العقاب.

ولما أخبر سبحانه أنه يعلم ظواهرهم وبواطنهم، وأنه يجليهم لنبيه صلى الله عليه وسلم في صور ما يخفونه من أقوالهم، وأكد ذلك لعلمه بشكهم فيه، واجههم بالتبكيت زيادة في إهانتهم عاماً لغيرهم إعلاماً بأنه محيط بالكل فقال عاطفاً على ما تقديره: فالله يعلم أقولكم: {والله} أي مما له من صفات الكمال {يعلم أعمالكم *} كلها الفعلية والقولية جليها وخفيها، علماً ثابتاً غيبياً وعلماً راسخاً شهودياً يتجدد بحسب تجددها مستمراً باستمرار ذلك.

▲ تفسير الآيات رقم [31- 33]

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31)
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33)}

ولما أخبر سبحانه أنه يعرفهم لنبيه صلى الله عليه وسلم، أتبعه الإخبار بأنه يعرفهم لكافة المؤمنين أيضـاً، فقال مؤكداً لأجل ظنهم أن عندهم من الملكة الشديدة والعقل الرصين ما يخفون به أمورهم: {ولنبلونكم} أي نعاملكم معاملة المبتلى بأن تخالطكم بما لنا من صـــفات العظمة بالأوامر الشـــديدة على النفوس النواهي الكريهة إليها والمصائب، خلطة مميلة محيلة، وهكذا التقدير في الفعلين الآتيين في قراءة الجماعة بالنون جرياً على الأســـلوب الأول، وفي قراءة أبي بكر عن عاصـــم بالياء الضـــمير لله تعالى الذي هو محيط بصـــفات العظمة الراجعة إلى القهر وغيرها من صـــفات الإكرام الآئلة إلى الإنعام، فهو في غاية الموافقة لقراءة النون {حتى نعلم} بالابتلاء علماً شهودياً يشهده غيرنا مطابقاً لما كنا تعلمه علماً غيبياً فنستخرج من سرائركم ما كوناه فيكم وجبلناكم عليه مما لا يعلمه أحد منكم بل ولا تعلمونه أنتم حق علمه {المجاهدين منكم} في القتال وفي ســائر الأعمال والشــدائد والأهوال امتثالاً للأمر بذلك.

ولما كان عماد الجهاد الصـبر على المكاره قال تأكيداً لأمره: {والصـابرين} أي على شدائد الجهاد وغيره من الأنكاد، قال القشيري: فبالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال، فيظهر المخلص ويتضـح المماذق وينكشـف المنافق. ولما نصب معياراً للعلم بالذوات، أتبعه مسباراً للمعرفة للأخيار، فقال عاطفاً على «نعلم» في رواية الجماعة وعلى «نبلو» في الرواية عن يعقوب بإسـكان الواو: {ونبلوا أخباركم} أي نخالطها بأن نسـلط عليها من يحرفها فيجعل حسنها قبيحاً وقبيحاً مليحاً ليظهر للناس العامل لله والعامل للشيطان،

فإن العامل لله إذا سمى قبيحه باسم الحسن علم أن ذلك إحسان من الله إليه فيستحيي منه ويرجع إليه، وإذا سمى حسنه باسم القبيح واشتهر به علم أن ذلك لطف من الله به كيلا يدركه العجب أو يهاجمه الرياء فيزيد في إحسانه، والعامل للشـيطان يزداد في القبائح. لأن شـهرته عند الناس محط نظره، ويرجع عن الحسـن لأنه لم يوصـله إلى ما أراد به من ثناء الناس عليه بالخبر ولم يؤكد بنا، وفي قراءة يعقوب إشارة إلى أن إحالة حال المخبر بعد ظهور خبره أسهل من إحالته قبل ظهوره، وعن الفضيل أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا هتكت أستارنا وفضحتنا.

ولما جرت العادة بأن الإنسان لا يعذب ولا يهدد إلى من ضره كما تقدم من الإخبار بنكالهم وقبيح أعمالهم مهيئاً للسؤال عن ذلك فاستأنف قوله مؤكداً لظنهم أنهم هم الغالبون لحزب الله: {إن الذين كفروا} أي غطوا من دلت عليه عقولهم من ظاهر آيات الله لا سيما بعد إرسال الرسول المؤيد بواضح المعجزات صلى الله عليه وسلم {وصدوا} أي امتنعوا ومنعوا غيرهم زيادة في كفرهم {عن سبيل الله} أي الطريق الواضح الذي نهجه الملك الأعظم.

ولما كان أكثر السياق للمساترين بكفرهم، أدغم في قوله: {وشاقوا الرسول} أي الكامل في الرسلية المعروفة غاية المعرفة.

ولما كان سـبحانه قد عفا عن إهمال الدليل العقلي على الوحدانية قبل الإرسال، قال مثبتاً الجار إعلاماً بأنه لا يغفر لمضيعه بعد الإرسال ولو في أدنى وقت: {من بعد ما تبين} أي غاية التبين بالمعجز {لهم الهدى} بحيث

صـار ظاهراً بنفسه غير محتاج بما أظهره الرسـول من الخوارق إلى مبين، ومنه ما أخبرت به الكتب القديمة الإليهة.

ولما كان المناصـب للرسـول إنما ناصـب من أرسـله، دل على ذلك بقوله معرياً له من الفاء دلالة على عدم التسـبيب بمعنى أن عدم هذا الضـر موجود عملوا أو لم يعملوا وجدوا أو لم يوجدوا {لن يضـروا الله} أي ملك الملوك، ولم يقل: الرسـول {شـيئاً} أي كثيراً ولا قليلاً من ضـرر بما تجمعوا عليه من الكفر والصد.

ولما كان التقدير: إنما ضـروا أنفسـهم ناجزاً بأنهم أتعبوها مما لم يغن عنهم شيئاً. عطف عليه: {وسيحبط} أي يفسد فيبطل بوعد لا خلق فيه {أعمالهم *} من المحاسن لبنائها من المنافق على غير أساس ثابت، فهو إنما يرائي بها، ومن المجاهر على غير أسـاس أصـلاً، فلا ينفعهم شـيء منها، ومن المكائد التي يريدون بها توهين الإسـلام ونجعل تدميرهم بها في تدبيرهم وإن تناهوا في إحكامها، فلا تثمر لهم إلا عكس مرادهم سواء.

ولما حدى ما تقدم كله من ترغيب المخلص وترهيب المتردد والمبطل إلى الإخلاص ودعا إلى ذلك مع بيان أنه لا غرض أصـلاً، وإنما هو رحمة ولطف وإحسـان ومنّ، أنتج قوله منادياً من احتاج إلى النداء من نوع بعد لاحتياجه إلى ذلك وعدم مبادرته قبله: {يا أيها الذين آمنوا} أي أقروا بألسـنتهم {أطيعوا الله} أي الملك الأعظم تصـديقاً لدعواكم طاعته بشـدة الاجتهاد فيها أنها خالصـة، وعظم الرسول الله صلى الله عليه وسلم بإفراده فقال تعالى: {وأطيعوا الرسول} لأن طاعته من طاعة الذي أرسله، فإذا فعلتم

ذلك حققتم أنفسكم وأعمالكم كما مضى أول السورة، فتكون صحيحة ببنائها على الطاعة بتصحيح النيات وتصفيتها مع الإحسان للصورة في الظاهر ليكمل العمل صورة وروحاً.

ولما كانت الطاعة قد تحمل على إقامة الصورة الظاهرة، قال منبهاً على الإخلاص لتكمل حساً ومعنى: {ولا تبطلوا أعمالكم *} أي بمعصيتهما، فإن الأعمال الصالحة إذا نوى لها ما لا يرضيهما بطلب وإن كانت في الذروة من حسن الصورة، فكانت صورة بلا معنى، فهي مما يكون هباء منثوراً مثل ما فعل أولئك المظهرون للإيمان المبطنون للمشاققة بالنفاق والرياء والعجب والملء والأذى ونحو ذلك من المعاصي، ولكن السياق بسياقه ولحاقه يدل على أن الكفر هو المراد الأعظم بذلك، والآية من الاحتباك : ذكر الطاعة أولاً دليلاً على المعصية ثانياً، والإبطال ثانياً دليلاً على الصحة أولاً، وسره أنه أمر بمبدأ السعادة ونهى عن نهاية الفساد ثانياً، لأنه أعظم في النهي عن الفساد لما فيه من تقبيح صورته وهتك سريرته.

▲ تفسير الآيات رقم [34- 36]

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36)}

ولما دل ما أخبر به أولاً عن المشاقين على أنهم مغلوبون في الدنيا خاسرون في الآخرة، وكانت الخسارة في الآخرة مشروطة بشرط، علل ما أمر به المؤمنون هنا من الطاعة ونهوا عنه من إبطال الأعمال بالمعصية، زيادة في حثهم على ما أمر به بعلتين كل منها مستقل بامتثال أمره واجتناب نهيه: إحدهما عدم المغفرة، والثانية بطلان الأعمال والأموال بكون الدنيا لا حقيقة لها، وقدم الأولى لأن الثانية– وهي أن الدنيا لعب– كالعلة الحاصلة على ما أوجبها، ومن حسن التعليم بيان الحكم ثم تعليله بأقرب ما يحمل عليه أو يصد عنه، فكأنه قيل: لا تبطلوها بالصد عن سبيل الله الحامل عليه الإقبال على الدنيا التي هي عين الباطل، فإنكم إن فعلتم ذلك فاتتكم المغفرة، وذلك من معنى قوله تعالى مؤكداً لإنكارهم مضمونه: {إن الذين كفروا} أي أوقعوا الكفر بفعلهم فعل الساتر لما دله عليه عقله من آيات الله المرئية ثم المسموعة {وصدوا عن سبيل الله} أي طريق الملك الأعلى الواضح المستقيم الموصل إلى كل ما ينبغي أن يقصد كل من أراده بتماديهم على باطلهم وأذاهم لمن خالفهم.

ولما كان هذا أمراً قبيحاً من جهات عديد لما فيه من مخالفة الملك الأعظم المرهوب بطشه المحذورة سطوته، ومن ترك الواسع إلى الضيق والمستقيم إلى المعوج والموصل إلى الفوز إلى الموصل إلى الخيبة، فكان التمادي فيه في غاية البعد، نبه على ذلك بأداة التراخي فقال: {ثم ماتوا} أي بعد المدلهم في مضمارهم بالتطويل في أعمارهم {وهم} أي والحال أنهم {كفار} ولما كان السبب الأعظم في الإحباط الموت على الكفر، نبه عليه بالفاء الدالة على

ربط الجزاء بالشــرط وتســببه عنه فقال مؤكداً له لإنكارهم ذلك: {فلن يغفر الله} أي المحيط بجميع صــفات الكمال التي تمنع من تســوية المســيء بالمحســن {لهم} فلا يمحو ذنوبهم ولا يســتر عيوبهم، بل يفضــح ســرائرهم ويوهن كيدهم ويردهم على أعقابهم في كل ما يتقلبون فيه لأنهم قد أبطلوا أعمالهم بالخروج عن دائرة الطاعة، فلم يبق لهم ما يغفر لهم بســببه، وقد دلت هذه الآية على ما دلت عليه آية البقرة من أن إحباط العمل في المرتد مشروط بالموت على الكفر.

ولما قدم ســبحانه ذم الكفرة وأنه عليهم وأنه يبطل أعمالهم في الدنيا في الحرب وغيرها، وختم بأن عداوته لهم متحتمة لا انفكاك لها، وكان ذلك موجباً للاجتراء عليهم، سبب عنه قوله مرغباً لهم في لزوم الجهاد محذراً من تركه: {فلا تهنوا} أي تضـعفوا ضـعفاً يؤدي بكم إلى الهوان والذل {وتدعوا} أي أعداءكم {إلى السلم} أي المسالمة وهي الصلح {وأنتم} أي والحال أنكم {الأعلون} على كل من ناواكم لأن الله عليهم، ثم عطف على الحال قوله: {والله} أي الملك الأعظم الذي لا يعجزة شيء ولا كفوء له {معكم} أي بنصره ومعونته وجميع ما يفعله الكرمي إذا كان مع غيره، ومن علم أن ســيده معه وعلم أنه قادر على ما يريد لم يبال بشيء أصلاً {ولن يتركم أعمالكم *} أي فيســلبكموها فيجعلكم وتراً منها بمعنى أنه يبطلها كما يفعل مع أعدائكم في إحباط أعمالهم فيصـيرون مفردين عنها لأنكم لم تبطلوا أعمالكم بجعل الدنيا محط أمركم، فلا يجوز لإمام المسلمين أن يجيب إلى مسالمة الكفار وبه قوة

على مـدافعتهم، ولا يحـل لـه ترك الجهـاد إلا لمعنى يظهر فيـه النظر للمسلمين، ومتى لم يجاهد في سبيل الله انصرف بأسه إلى المسلمين.
ولما أتم العلة الأولى أقبل على الثانية الصـــادة عن الطاعة القائدة إلى المعصــية الملائمة للشــهوة المبطلة للأعمال الموجبة للتهاون المؤدي إلى عدم المغفرة، فقال مرغباً في طاعته الموجبة للفوز الدائم ببيان قصـــر أيام المحنة وتجرع مرارات المشـقة: {إنما الحياة} وأشـار إلى دناءتها تنفيراً عنها بقوله: {الدنيا} ولما كان مطلق العلو موجباً لأعظم اللذاذة فكيف إذا كان موجبه الدين الضـامن لدوام اللذة موصـولاً دنيويها بأخرويها، وكان اللعب ما ينشأ من زيادة البسط وينقضي بسرعة مع دلالته على الخفة كالرقص، قدمه إشــارة إلى أن العاقل من يســعى في زيادة بســط يحمل على الرزانة ويدوم، وأتبعه اللهو لأنه ما يستجلب به السرور كالغنا إشارة إلى أنه إن كان المراد بالدنيا زيادة بسـطها فهو ينقضــي بسـرعة، مع ما فيه من الرعونة، وإن كان المراد أصل البسط والسرور فعندكم منه بالعلو الحاصل لكم بالجهاد ما هو في غاية العظمة والجد والثبات فلا ســفه أعظم من العدول عنه إلى ما إن سـر حمل على الطيش وانقضــى بسـرعة، فقال: {لعب} أي أعمال ضـائعة سافلة تزيد في السرور ويسرع اضمحلاله، فيبطل من غير ثمرة {ولهو} أي مشـغلة يطلب بها إثارة اللذة كالغنا وحيرة وغفلة، فإن تتبعوها تكفروا وتبطروا وتجترئوا على الله، وإن تكفروا به وتجترئوا عليه تبطل أجوركم فلا يكون لكم أجر ولا مال لأنه يبطل أعمالكم وأموالكم بكونها تصير صوراً لا معاني لها.

ولما صـور سـبحانه الدنيا بألذ صـورها عند الجاهل وأمضـها عند العاقل، وحاصــله أنها زيادة ســرور لمن كان مســروراً، واســتجلاب له لمن كان مضروراً، لكنه سريع الانصرام بخلاف ثمرة الاجتماع على الدين من سرور العلو بالإســلام، فإنه باق على الدوام، علم أن التقدير بناء على ما تبع وصـف الدنيا، والآخرة جد وعمل وحضـور فإن تقبلوا عليها تؤمنوا وتتقوا فلا تخدعنكم الدنيا على دناءتها عن نيل الآخرة بالجهاد الأكبر والأصـغر على شرفها وشرفه، قال بانياً على ما أرشد السياق إلى تقديره: {وإن تؤمنوا وتتقوا} أي تخافوا فتجعلوا بينكم وبين غضبه سبحانه وقاية من جهاد أعدائه ومقاساة لفح إيقاد الحروب وحر الأمر بالمعروف وإنفاق الأموال في ذلك، فتكونوا جادين فتتركوا اللهو واللعب القائدين إلى الكفر {يؤتكم} أي الله الذي فعلتم ذلك من أجله في الدار الآخرة {أجوركم} أي ثواب كل أعمالكم لبنائها على الأسـاس ولأنه غني لا ينقصـه إلا عطاء، والآية من الاحتباك: ذكر الحياة الدنيا واللهو واللعب أولاً دال على ذكر الآخرة والجد ثانياً، وذكر الإيمان والتقوى ثانياً دال على حذف ضدهما الكفران والجرأة أولاً، وسره أن تصوير الشـيء بحال الصـبي والسـفيه أشـد في الزجر عنه عند ذوي الهمم العالية، وذكر الأجر المرتب على الخوف الذي هو فعل الحزمة أعون على تركه.

ولما كان الملعوب به الملهو منه يســأل اللاعب اللاهي من ماله، ولا يقنع عند سؤاله، فيكون سبباً لضياع أعماله وأمواله، بين أن المعبود بخلاف ذلك في الأمرين، وأنه يعطي ولا يأخذ لنفســه شــيئاً وإنما أخذه أمره بمواصــلة بعضـكم لبعض فقال تعالى: {ولا يسئلكم} أي الله في الدنيا {أموالكم *} أي

لنفســـه ولا كلها، وهذا مفهم لأنهم إن لم يتقوا بما ذكر ســلط عليه من يأخذ أموالهم بما يخرج أضغانهم، قال ابن برجان: ومتى سئلوا أموالهم بخلوا، فإن أكرهوا على ذلك أشحنوا ضغائن وحقائد، ولم يكن من الإمام لهم نصيحة ولا منهم للإمام ولا لبعضـــــهم لبعض، وكان الخلاف، وفي ذلك الحالقة، وهو إنذار منه سبحانه بما يكون بعد، وما أنذر شيئاً إلا كان منه ما شاء الله.

▲ تفسير الآيات رقم [37- 38]

{إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37)

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)}

ولما كان الإنســان، لما جبل عليه من النقصــان، قد يهلك جميع أمواله لهواً ولعباً بالمقامرة ونحوها، ولا ينهاه ذلك بل لا يزيده إلا إقبالاً رجاء أن يظفر، ولو سئل جميع ماله في الطاعة لبخل، قال تعالى ذاكراً لهم ذلك تنبيهاً عليه وإيماء إلى حلمه تعالى عنهم وتحببه إليه معللاً ما قبله: {أن يسئلكموها} أي الأموال كلها، ولما كانت الأموال قد تطلق على معظمها، حقق المعنى بقوله: {فيحفكم} أي يبالغ في ســؤالكم ويبلغ فيه الغاية حتى يســتأصــلها فيجهدكم بذلك {تبخلوا} فلا تعطوا شيئاً {ويخرج} أي الله أو المصدر المفهوم من «تبخلوا» بذلك الســؤال {أضــغانكم *} أي ميلكم عنه حتى يكون آخر ذلك عداوة وحقداً، وقد دل إضــافة الأضــغان إلى ضــميرهم أن كل إنســان

ينطوي بما له من النقصان، على ما جبل عليه من الإضغان، إلا من عصم الرحيم الرحمن، قال الرازي : وهذا دليل على أن العبد إذا منع في مواسـم الخيرات سوى الزكاة لم يخرج من البخل، فحد البخل منع ما يرتضيه الشرع والمروءة فلا بـد من مراعـاة المروءة ورفع قبح الأحـدوثـة، وذلـك يختلف باختلاف الأشـخاص، وقدم المادة مهما ظهر له أن فائدة البذل أعظم من فائدة الإمسـاك ثم يشـق عليه البذل فهو بخيل محب للمال، والمال لا ينبغي أن يحب لذاته بل لفائدته، وحفظ المروءة أعظم وأفضـل وأقوى من التنعم بالأكل الكثير مثلاً.

ولما أخبر ببخلهم لو سـئلوا جميع أموالهم أو أكثرها، دل عليه بمن يبخل منهم عما سـأله منهم وهو جزء يسـير جداً من أموالهم، فقال منبهاً لهم على حسـن تدبيره لهم وعفوه عنهم عند من جعل «ها» للتنبيه، ومن جعل الهاء بدلاً من همزة اسـتفهام جعلها للتوبيخ والتقريع، لأن من حق من دعاه مولاه أن يبادر للإجابة مسروراً فضلاً أن يبخل، وفي هاء التنبيه ولا سيما عند من يرى تكررها تأكيد لأجل استبعادهم أن أحداً يبخل عما يأمر الله به سبحانه: {هأنتم} وحقر أمرهم أو أحضره في الذهن وصوره بقوله: {هؤلاء تدعون} أي إلى ربكم الذي لا يريد بدعائكم إلا نفعكم وأما هو فلا يلحقه نفع ولا ضـر {لتنفقوا} شيئاً يسيراً من الزكاة وهي ربع العشر ونحوه، ومن نفقة الغزو وقد يحصل من الغنيمة أضعافها وقد يحصل من المتجر أو أكثر، وقد عم ذلك وغيره قوله: {في سـبيل الله} أي الملك الأعظم الذي يرجى خيره ويخشـى ضيره، بخلاف من يكون وما يكون به اللهو اللعب.

ولما أخبر بدعائهم، فصلهم فقال تعالى: {فمنكم} أي أيها المدعون {من يبخل} وهو منكم لا شك فيه، وحذف القسم الآخر وهو «ومنكم من يجود» لأن المراد الاستدلال على ما قبله من البخل.

ولما كان بخله عمن أعطاه المال بجزء يسير منه إنما طلبه ليقع المطلوب منه فقط زاد العجب بقوله: {ومن} أي والحال أنه من {يبخل} بذلك {فإنما يبخل} أي بماله بخلاً صادراً {عن نفسه} التي هي منبع الدنايا، فلا تنفس ولا تنافس إلا في الشيء الخسيس، فإن نفع ذلك الذي طلب منه فبخل به إنما هو له، وأكده لأنه لا يكاد أحد يصدق أن عاقلاً يتجاوز بماله عن نفع نفسه، ولذا حذف «ومن يجد فإنما يجد على نفسه» لفهمه عن السياق واستغناء الدليل عنه، هذا والأحسن أن يكون «يبخل» متضمناً «يمسك» ثم حذف «يمسك» ودل عليه بحال محذوفة دل عليها التعدية بعن.

ولما كان سؤال المال قد يوهم شيئاً، قال مزيلاً له مقرراً لأن بخل الإنسان إنما هو عن نفسه عطفاً على ما تقديره: لأن ضرر بخله إنما يعود عليه وهو سبحانه لم يسألكم ذلك لحاجته إليه ولا إلى شيء منكم، بل لحاجتكم إلى الثواب، وهو سبحانه قد بنى أمور هذه الدار كما اقتضته الحكمة على الأسباب: {والله} أي الملك الأعظم الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال {الغني} أي وحده {وأنتم} أيها المكلفون خاصة {الفقراء} لأن العطاء ينفعكم والمنع يضركم. فمن افتقر منكم إلى فقير مثله وقع في الذل والهوان، وقد جرت عادتكم أن يداخلكم من السرور ما لا يجد إذا طلب من أحد منكم أحد

من الأجواد الأغنياء شـــيئاً طمعاً في جزائه، فكونوا كذلك وأعظم إذا طلب منكم الغنى المطلق.

ولما كان التقدير : فإن تقبلوا بنولكم تفلحوا عطف عليه قوله مرهباً لأن الترهيب أردع: {وإن تتولوا} أي توقعوا التولي عنه تكلفوا أنفسكم ضد ما تدعو إليه الفطرة الأولى من السماح بذلك الجزاء اليسير جداً الموجب للثواب الخطير والفوز الدائم، ومن الجهاد في سبيله، والقيام بطاعته، لكونه المحسن الذي لا محسن في الحقيقة غيره {يستبدل} أي يوجد {قوماً} فيهم قوة وكفاية لما يطلب منهم محاولته.

ولما كان ذلك مفهماً أنهم غيرهم، لكنه لا يمنع أن يكونوا– مع كونهم غير أعيانهم– من قومهم أو أن يشـــأ دونهم في الصـــفات وإن كانوا من غير قومهم، نبه على أنهم يكونون من غير قومهم وعلى غير صـــفاتهم، بل هم أعلى منهم درجة وأكرم خليقة وأحســن فعلاً فقال تعالى: {غيركم} أي بدلاً منكم وهو على غير صفة التولي.

ولما كان الناس متقاربين في الجبلات، وكان المال محبوباً، كان من المستبعد جداً أن يكون هذا البذل على غير ما هم عليه، قال تعالى مشيراً إلى ذلك بحرف التراخي تأكيداً لما أفهمه ما قلته من التعبير ب «غير» وتثبيتاً له: {ثم} أي بعد استبعاد من يستبعد وعلو الهمة في مجاوزة جميع عقبات النفس والشيطان: {لا يكونوا أمثالكم *} في التولي عنه بترك شيء مما أمر به أو فعل شـــيء مما نهى عنه، ومن قدر على الإيجاد قدر على الإعدام.

بل هو أهون في مجاري العادات، فقد ثبت أنه سبحانه لو شاء لانتصر من الكفار، إما بإهلاكهم أو إما بناس غيركم بضرب رقابهم وأسرهم، وغير ذلك من أمرهم، وثبت بمواصلة ذم الكفار مع قدرته عليهم أنه أبطل أعمالهم، فرجع بذلك أول السورة إلى آخرها، وعانق موصله ما ترى من مفصلها، وعلم أن معنى هذا الآخر وذلك الأول أنه سبحانه لا بد من إذلاله للكافرين وإعزازه للمؤمنين لأنهم إن أقبلوا على ما يرضيه فجاهدوا نصرهم نصراً عزيزاً بما ضمنه قوله تعالى {إن تنصروا الله ينصركم وثبت أقدامكم} وإن تتولوا أتى بقوم غيركم يقبلون عليه فيصدقهم وعده، فصار خذلانهم أمراً متحتماً، وهو معنى أول سورة محمد– والله الموفق لما يريد من الصواب.

▲ سورة الفتح
48
تفسير البقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1- 4]

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1)
لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2)
وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3)
هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4)}

لما كانت تلك سورة الجهاد وكانت هذه سورة محمد بشارة للمجاهدين من أهل هذا الدين بالفوز والنصر والظفر على كل من كفر، وهذا كما سيأتي من إيلاء سورة النصر لسورة الكافرون، فأخبرت القتال عن الكافرين بإبطال الأعمال والتدمير وإهلاكهم بالتقال، وإفساد جميع الأحوال، وعن الذين آمنوا

بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بالهداية وإصلاح البال، وختمها بالتحريض على مجاهدتهم بعد أن ضمن لمن نصره منهم النصر وتثبيت الأقدام، وهدد من أعرض باستبدال غيره به، وإن ذلك البدل لا يتولى عن العدو ولا ينكل عنه، فكان ذلك محتماً لسفول الكفر وعلو الإيمان، وذلك بعينه هو الفتح المبين، فافتتح هذه بقوله على طريق النتيجة لذلك بقوله مؤكداً إعلاماً بأنه لا بد منه وأنه مما ينبغي أن يؤكد لابتهاج النفوس الفاضلة به، وتكذيب من في قلبه مرض وهم أغلب الناس في ذلك الوقت. {إنا} أي بما لنا من العظمة التي لا تثبت لها الجبال {فتحنا} أي أوقعنا الفتح المناسب لعظمتنا لكل متعلق بإتقان الأسباب المنتجة له من غير شك، ولذلك عبر عنه بالماضي.

ولما كانت منفعة ذلك له صلى الله عليه وسلم لأن إعلاء كلمة الله يكون به فيعليه ويمتلئ الأرض من أمنه، فلا يعمل منهم أحد حسنة إلا كان له مثل أجرها ويكونون على قصر زمنهم ثلثي أهل الجنة، فيكون ذلك شرفاً له- إلى غير ذلك الأسرار، التي يعيى دون أيسرها الكفار، قال: {لك} أي بصلح الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة التي نزلت هذه السورة في شأنه، يصحبان في الرجوع منه إلى المدينة المشرفة، قال الأزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فرأوا ما لا أعدل منه ولا أحسن، فاستولى الإسلام على قلوبهم وتمكن منهم فأسلم منهم في ثلاث سنين خلق كثير، وكذا كان من الفتح تقوية أمره صلى الله عليه وسلم بالتصديق فيما أنزل عليه من سورة

من غلبهم على أهل فارس في رواية من قال: إنه كان في زمن الحديبية، ثم زاده تأكيداً بقوله: {فتحاً} وزاد في إعظامه بقوله: {مبيناً *} أي لا لبس فيه على أحد، بل يعلم كل ذي عقل به أنك ظاهر على جميع أهل الأرض لأنك كنت وحدك، وكان عند أهل الكفر أنك في أيديهم، وأن أمرك لا يعدو فمك، فتبعك ناس ضـــعفاء فعذبوهم وكانوا معهم في أســوأ الأحوال، وتقرر ذلك في إذهانهم مدداً طوالاً ثلاث عشـــرة ســـنة، ثم انقذ الله أتباعك منهم بالهجرة إلى النجاشـي رحمه الله تعالى أولاً، وإلى المدينة الشـريفة ثانياً، وهم مطمئنون بأنك أنت– وأنت رأســـهم– لا ينتظم لهم بدونك أمر، ولا يحصـــل لكسرهم ما لم تكن معهم جبر، بأنك في قبضتهم لا خلاص لك أبداً منهم ولا انفكاك من بلدتهم، فاســـتخرجك الله من عندهم بعد أن حماك على خلاف القياس وأنت بينهم من أن يقتلوك، مع اجتهادهم في ذلك واســتفراغهم قواهم في أذاك، ثم بذلوا جهدهم في منعك من الهجرة فما قدروا، ثم في ردك فما أطاقوا ولا فازوا ولا ظفروا.

بل غلبوا وقهروا، ثم أيدك بأنصــــار أبرار أخيار فكنتم على قلتكم كالليوث الكواسـر والبحار الزواخر، ما ملتم على جهة إلا غمرتموها، وفزتم بالنصـف من أربابها قتلتموها أو أســرتموها ولم تزالوا تزدادون وتقوون، وهم ينقصــون ويضـعفون، حتى أتيتموهم في بلادهم التي هم قاطعون بأنهم ملوكها، يتعذر على غيرهم غلبهم عليها بل ســـلوكها، فما دافعوكم عن دخول عليهم إلا بالراح، وسألوكم في وضع الحرب للدعة والإصلاح، فقد ظهرت أعلام الفتح أتم ظهور، وعلم أربـاب القلوب أنـه لا بـد أن تكون في امتطـائكم الـذرى

وســــموكم إلى رتب المعالي وأيّ أمور، وروى الإمام أحمد عن مجمع بن جارية الأنصـاري رضـي الله عنه قال: «شـهدنا الحديبية مع النبي صـلى الله عليه وسـلم، فلما انصـرفنا منها إذا الناس يهزون الأباعر فقال بعضـهم: ما بال الناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فخرجنا نوجف، فوجدنا النبي صـــلى الله عليه وســـلم واقفاً على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع عليه الناس قرأ {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً} فقال عمر رضي الله عنه: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده».

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: ارتباط هذه السـورة بالتي قبلها واضـح من جهات– وقد يغمض بعضـــها– منها أن ســـورة القتال لما أمروا فيها بقتال عدوهم في قوله تعالى {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب} الآية، وأشعروا بالمعونة عند وقوع الصدق في قوله {إن تنصروا الله ينصركم} استدعى ذلك تشـوف النفوس إلى حالة العاقبة فعرفوا ذلك في هذه السـورة فقال تعالى {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً}– الآيات، فعرف تعالى نبيه صـــلى الله عليه وســـلم بعظيم صـــنعه له، وأتبع ذلك بشـــارة المؤمنين العامة فقال {هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين}– الآيات، والتحمت إلى التعريف بحال من نكث من مبايعته صـــلى الله عليه وســـلم، وحكم المخلفين من الأعراب، والحض على الجهاد، وبيان حال ذوي الأعذار، وعظيم نعمته ســـبحانه على أهل بيعته {لقد رضـــي الله عن المؤمنين} وأثابهم الفتح وأخذ المغانم وبشـــارتهم بفتح مكة {لتدخلن المســـجد الحرام} إلى ما ذكر ســـبحانه من عظيم نعمته عليهم وذكرهم في التوراة والإنجيل ما تضـــمنت هذه الســـورة الكريمة، ووجه

آخر وهو أنه لما قال الله تعالى في آخر سـورة القتال {فلا تهنوا وتدعوا إلى السـلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم} كان هذا إجمالاً في عظيم ما منحهم وجليل ما أعطاهم، فتضـمنت سـورة محمد تفسـير هذا الإجمال وبسـطه، وهذا يسـتدعي من بسـط الكلام ما لم تعتمده في هذا التعليق، وهو بعد مفهوم مما سـبق من الإشـارات في الوجه الأول، ووجه آخر مما يغمض وهو أن قوله تعالى {وإن تتولوا يسـتبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} إشارة إلى من يدخل في ملة الإسلام من الفرس وغيرهم عند تولي العرب، وقد أشار أيضاً إلى هذا قوله تعالى

{يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسـوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه} [المائدة: 54] وأشار إلى ذلك عليه الصلاة والسلام: «ويل للعرب من شـر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا»- وعقد السـبابة بالإبهام، أشـار عليه الصـلاة والسـلام إلى تولي العرب واسـتيلاء غيرهم الواقع في الآيتين، وإنما أشـار عليه الصـلاة والسـلام بقوله «اليوم» إلى التقديم والتأخير، وفرغ هذا الأمر إلى أيام أبي جعفر المنصـور، فغلبت الفرس والأكراد وأهل الصـين وصـين الصـين- وهو ما يلي يأجوج ومأجوج- وكان فتحاً وعزاً وظهوراً لكلمة الإسـلام، وغلب هؤلاء في الخطط والتدبير الإماري وسادوا غيرهم، ولهذا جعل صلى الله عليه وسلم مجيئهم فتحاً فقال: «فتح اليوم» ولو أراد غير هذا لم يعبر بفتح، ألا ترى قول عمر لحذيفة رضـي الله عنهما في حديث الفتن حين قال له «إن بينك وبينها باباً مغلقاً» فقال عمر: أيفتح ذلك الباب أم يكسـر؟ فقال: بل يكسـر. ففرق بين الفتح

والكسر، وإنما أشار إلى قتل عمر رضي الله عنه، ولذا قال عليه الصلاة والسلام «فتح» وقال: «من ردم يأجوج ومأجوج» وأراد من نحوهم وجهتهم وأقاليمهم، لأن الفرس ومن أتى معهم هم أهل الجهات التي تلي الردم، فعلى هذا يكون قوله تعالى: {وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم} إشارة إلى غلبة من ذكرنا وانتشارهم في الولايات والخطط الدينية والمناصب العلمية. ولما كان هذا قبل أن يوضح أمره يوهم نقصاً وخطأ، بين أنه تجديد فتح وإعزاز منه تعالى لكلمة الإسلام، فقال تعالى: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً} الآيات، ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في تلخيص التلخيص علماء المالكية مشيراً إلى تفاوت درجاتهم ثم قال: وأمضاهم في النظر عزيمة وأقواهم فيه شكيمة أهل خراسان: العجم أنساباً وبلداناً، والعرب عقائد وإيماناً، الذين ينجز فيهم وعد الصادق المصدوق، وملكهم الله مقاليد التحقيق حين أعرضت العرب عن العلوم وتولت عنها، وأقبلت على الدنيا واستوثقت منها، «قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! من هؤلاء الذين قال الله {وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} فأشار عليه الصلاة والسلام إلى سلمان وقال: لو كان الإيمان في الثريا لناله رجال من هؤلاء«
–انتهى.

ولما أخبر سبحانه بالفتح عقب سورة {الذين كفروا} بشارة بظهور أهل هذا الدين وإدبار الكافرين– كما سيأتي في إيلاء سورة النصر بسورة الكافرين، لذلك علل الفتح بالمغفرة وما بعدها رمزاً إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم– بروحي هو وأبي وأمي– وإيماء إلى أن المراد من إخراجه إلى دار

الفناء إنما هو إظهار الدين القيم وإزهاق الباطل لتعلو درجته وتعظم رفعته، فعند حصـول الفتح ثم المراد كما كانت سـورة النصـر الوالية للكافرين رامزة إلى ذلك كما هو مشـهور ومذكور ومسطور، فالفتح الذي هو أحد العلامات الثلاث المذكورة كما في سورة النصر على جميع المناوين، الذي هو السبب الأعظم في ظهور دينـه على الـدين كلـه الـذي هو العلامـة العظمى على اقتراب أجله– نفسـي فداؤه وإنسـان عيني من كل سـوء وقاؤه– فقال تعالى: {ليغفر لك الله} مشيراً بالانتقال من أسلوب العظمة بالنون إلى أسلوب الغيبة المشـير إلى غاية الكبرياء بالإسـناد إلى الاسـم الأعظم إلى أن هذه المغفرة بحسـب إحاطة هذا الاسـم الجامع لجميع الأسـماء الحسـنى: {ما تقدم من ذنبك} أي الذي تقدم في القتال أمرك بالاسـتغفار له وهو مما ينتقل به من مقام كامل إلى مقام فوقه أكمل منه، فتراه بالنسـبة إلى أكملية المقام الثاني ذنباً، وكذا قوله: {وما تأخر} قال الرازي: المغفرة المعتبرة لها درجات كما أن الذنوب لها درجات «حسـنات الأبرار سـيئات المقربين» انتهى. ويجوز أن يكون المراد: لتشـاهد المغفرة بالنقلة إلينا بعد علم اليقين بعين اليقين وحق اليقين، فالمعنى أن الله يتوفاه صلى الله عليه وسلم عقب الفتح ودخول جميع العرب الذين يفتتحون جميع البلاد ويهدي الله بهم سـائر العباد في دينه، ويأس الشيطان من أن يعبد في جزيرتهم إلا بالمحقرات لوجود المقصود من امتلاء الأكوان بحسـناته صـلى الله عليه وسـلم، وعموم ما دل عليه اسـمه المذكور في هاتين السـورتين من حمده تعالى بكماله في ذاته وصـفاته ببلوغ أتباعه إلى حد لا يحصرون فيه بعد، ولا يقف لهم مخلوق على حد.

ولما كان تمام النعمة يتحقق بشيئين: إظهار الدين والتقلة إلى مرافقة النبيين، قال تعالى مخبراً بالشيئين: {ويتم نعمته عليك} بنقلك من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن عالم الكون والفساد إلى عالم الثبات والصلاح، الذي هو أخص بحضرته وأولى برحمته وإظهار أصحابك من بعدك على جميع أهل الملل، ويدحضون شبه الشيطان، ويدمغون كل كفران، وينشرون رايات الإيمان في جميع البلدان، بعد إذلال أهل العدوان، ومحو كل طغيان.

ولما كانت هدايتهم من هدايته، أضافها سبحانه إليه إعلاماً له أنها هداية تليق بجانبه الشريف سروراً له فقال: {ويهديك} أي بهداية جميع قومك {صراطاً مستقيماً *} أي واضحاً جليلاً جلياً موصلاً إلى المراد من كتاب لا عوج فيه بوجه، هداية تقتضي لزومه والثبات عليه {وينصرك الله} بنصرهم على ملوك الأمم وجلائهم لسائر الغمم، نصراً يليق إسناده إلى اسمه المحيط بسائر العظم {نصراً عزيزاً} أي يغلب المنصور به كل من ناواه ولا يغلبه شيء مع دوامه فلا ذل بعده لأن الأمة التي تتصف به لا يظهر عليها أحد، والدين الذي قضاه لأجله لا ينسخه شيء.

ولما كان صلى الله عليه وسلم قد أخبر المؤمنين برؤياه أنه يطوف بالكعبة الشريفة، وعز على العمرة عام الحديبية، وخرج صلى الله عليه وسلم وخرج معه خلاصة أصحابه ألف وخمسمائة، فكانوا مؤقنين أنهم يعتمرون في وجههم ذلك، وقر ذلك في صدورهم وأشربته قلوبهم، فصار نزعه منها أشق شيء يكون، قصدهم المشركون بعد أن بركت ناقته وصالحهم صلى الله عليه وسلم على أن يرجع عنهم في ذلك العام ويعتمر في مثل ذلك الوقت

من القابل، وكان ذلك- بل أدنى منه- مزلزلاً للاعتقاد مطرقاً للشـــيطان الوسوسة في الدين، وقد كان مثله في الإسراء ولم يكن صلى الله عليه وسلم أخبر بما يوهم في أمره فارتد ناس كثير بسببه، قال تعالى دالاً على النصر بتثبيت المؤمنين في هذا المحل الضـنك إظهاراً لتمام قدرته ولطيف حكمته: {هو} أي وحده {الذي أنزل} في يوم الحديبية {السـكينة} أي الثبات على الدين {في قلوب المؤمنين} أي الراسـخين في الإيمان وهم أهل الحديبية بعد أن دهمهم فيها ما من شـأنه أن يزعج النفوس ويزيغ القلوب من صـد الكفار ورجوع الصحابة رضي الله تعالى عنهم دون مقصودهم، فلم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن ماج الناس وزلزلوا حتى عمر رضـــي الله عنه- مع أنه الفاروق ومع وصـفه في الكتب السـالفة بأنه قرن من حديد- فما الظن بغيره في فلق نفســه وتزلزل قلبه، وكان للصـديق رضـي الله عنه من القدم الثابت والأصــل الراســخ ما علم به رضـــي الله عنه أنه لا يســابق، ثم ثبتهم الله أجمعين، قال الرازي: والسـكينة الثقة بوعد الله، والصـبر على حكم الله، بل السـكينة ههنا معين بجمع فوزاً وقوة وروحاً، يسـكن إليه الخائف ويتسـلى به الحزين، وأثر هذه الســـكينة الوقار والخشـــوع وظهور الحزم في الأمور- انتهى. وكل من رسخ في الإيمان، له في هذه الآية نصيب جناه دان.

ولما أخبر بما لا يقدر عليه غيره، علله بقوله: {ليزدادوا} أي بتصــــديق الرســـول حين قال لهم: إنهم لا بد أن يدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت العتيق، وحلهم الله به من الشبهة بتذكرهم أنه لم يقل لهم: إنهم يدخلون العام {إيماناً} بهذا التصـــديق بالغيب من أن صـــلحهم للكفار ورجوعهم من غير بلوغ

قصدهم هو عين الفتح لترتب الصلح عليه وترتب فشو الإسلام على الصلح كما كشف عنه الوجود بعد ذلك ليقيسوا عليه غيره من الأوامر {مع إيمانهم} الثابت من قبل هذه الواقعة، قال القشـــيري رحمه الله: بطلوع أقمار اليقين على نجوم علم اليقين، ثم بطلوع شمس حق اليقين على بدر عين اليقين.

ولما كان ربما ظن شقي من أخذ الأمور بالتدريج شيئاً في القدرة قال: {ولله} أي الذي أنزل السـكينة عليهم ليكون نصـرهم في هذه العمرة بالقوة ثم يكون عن قريب بالفعل والحال أنه له وحده {جنود السـماوات والأرض} أي جميعها، ومنها السـكينة، يدبرهم بلطيف صـنعه وعجيب تدبيره، فلو شـاء لنصـر المؤمنين الآن بالفعل، ودمر على أعدائهم بجنود من جنوده أو بغير سبب، لكنه فعل ذلك ليكون النصر بكم، فيعلوا أمركم ويعظم أجركم، ويظهر الصادق في نصره من الكاذب، فإن الدار دار البلاء، وبناء المسببات على الأسـباب على وجه الأغلب فيه الحكمة، لا القهر وظهور الكلمة، فاسـمه الباطن هو الظاهر في هذه الدار، فلذلك ترى المسببات مستورات بأسبابها، فلا يعلم الحقائق إلا البصـراء ألا ترى أنه صـلى الله عليه وسـلم لما نزلت عليه هذه السـورة فتلاها عليه قال بعض الصـحابة رضـوان الله عليهم أجمعين: أي رسـول الله وفتح هو؟ قال بعضـهم: لقد صـدونا عن البيت وصدوا هدينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتح، أما رضـيتم أن تطرقوهم في بلادهم فيدفعوكم عنها بالراح ويسألوكم التضـير ويرغبون إلكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سـالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أنسـيتم يوم أحد إذ

تصـــعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم، أنســـيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أســـفل منكم وإذ زاغت الأبصـــار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون»، فقال المســـلمون: صـــدق الله ورســـوله فهو أعظم الفتوح. والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه لأنت أعلم بالله وأمره منا. وأنزل الله تأكيدا لأمر الرؤيا لمن أشـــكل عليهم حالها {لقد صـــدق الله رســـوله الرؤيا بالحق لتدخلن المســـجد الحرام} الآية، فهذه الأشـــياء كلها كما ترى راجعة إلى الخفاء بالتعجب في أستار الأسباب، فلا يبصـرها إلا أرباب التدقيق في النظر في حكمة الله سبحانه.

ولما كان مبنى ما مضـــــى كله على القدرة بأمور خفية يظهر منها من الضـــعف غير ما كشـــف عنه الزمان من القوة، وكان تمام القدرة متوقفاً على شـــمول العلم، قال تعالى: {وكان الله} أي الملك الأعظم أزلاً وأبداً {عليماً} بالذوات والمعاني {حكيماً *} في إتقان ما يصـــنع، فرده لهم عن هذه العمرة بعد أن دبر أمر الصلح ليأمن الناس فيداخل بعضـهم بعضاً لما علم من أنه لا يسمع القرآن أحد له عقل مستقيم ويرى ما عليه أهله من شدة الاستمساك به والبغض لما كانوا فيه من متابعة الآباء إلا بادر إلى المتابعة ودخل في الدين برغبة، وأدخل ســـبحانه خزاعة في صـــلح النبي صـــلى الله عليه وســـلم وبني بكر وهم أعداؤهم في صـــلح قريش ليبغوا عليهم فتعينهم قريش الصـــلح بعد أن كثرت جنود الله وعز ناصـــــر الدين، فيفتح الله بهم مكة المشـــــرفة، فتنتشـــــر أعلام الدين، وتخفق ألوية النصـــــر المبين، ويدخل الناس في الدين أفواجاً، فيظهر دين الإسلام على جميع الأديان.

▲ تفسير الآيات رقم [5- 8]

{لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8)}

ولما دل على الفتح بالنصر وما معه، وعلل الدين بالسكينة، علل علة الدليل وهي {ليزدادوا إيماناً} وعلل ما دل عليه ملك الجنود من تدبيرهم وتدبير الأكوان بهم بقوله تعالى زيادة في السكينة: {ليدخل} أي بما أوقع في السكينة {المؤمنين والمؤمنات} الذين جبلهم جبلة خير بجهاد بعضهم ودخول بعضهم في الدين بجهاد المجاهدين، ولو سلط على الكفار جنوده من أول الأمر فأهلكوهم أو دمر عليهم بغير واسطة لفات دخول أكثرهم الجنة، وهم من آمن منهم بعد صلح الحديبية {جنات} أي بساتين لا يصل إلى عقولكم من وصفها إلا ما تعرفونه بعقولكم وإن كان الأمر أعظم من ذلك {تجري} ودل وقرب وبعض بقوله: {من تحتها الأنهار} فأي موضع أردت أن تجري منه نهراً قدرت على ذلك، لأن الماء قريب من وجه الأرض مع صلابتها وحسنها. ولما كان الماء لا يطيب إلا بالقرار تعالى: {خالدين فيها} أي لا إلى آخر.

ولما كان السـامع لهذا ربما ظن أن فعله ذلك باسـتحقاق، قال إشـارة إلى أنه لا سـبب إلا رحمته: {ويكفر} أي يسـتر سـتراً بليغاً شـاملاً {عنهم سـيئاتهم} التي ليس من الحكمة دخول الجنة دار القدس قبل تكفيرها، بسـببب ما كانوا متلبسـين به منها من الكفر وغيره، فكان ذلك التكفير سـبباً لدخولهم الجنة {وكان ذلك} أي الأمر العظيم من الإدخال والتكفير المهيئ له، وقدم الظرف تعظيماً لها فقال تعالى: {عند الله} أي الملك الأعظم ذي الجلال والإكرام {فوزاً عظيماً *} يملأ جميع الجهات.

ولما كان من أعظم الفوز إقرار العين بالانتقام من العدو وكان العدو المكاتم أشد من العدو المجاهر المراغم قال تعالى: {ويعذب المنافقين} أي يزيل كل ما لهم من العذوبة {والمنافقات} بما غاظهم من ازدياد الإيمان {والمشـركين والمشـركات} بصـدهم الذي كان سـبباً للمقام الدحض الذي كان سـبباً لإنزال السـكينة الذي كان سـبباً لقوة أهل الإسـلام بما تأثر عنه من كثرة الداخلين فيه، الذي كان سبباً لتدمير أهل الكفران، ثم بعد ذلك عذاب النيران.

ولما أخبر بعذابهم، أتبعه وصـفهم بما سـبب لهم ذلك فقال تعالى: {الظانين بالله} أي المحيط بجميع صـفات الكمال {ظن السـوء} من أنه لا يفي بوعده في أنه ينصـره رسـوله صـلى الله عليه وسـلم وأتباعه المؤمنين أو أنه لا يبعثهم. أو أنه لا يعذبهم لمخالفة رسـوله صـلى الله عليه وسـلم. ومشـاققة أتباعه. ولما أخبر سبحانه وتعالى بعذابهم فسره بقوله: {عليهم} أي في الدنيا والآخرة بما يخزيهم الله به من كثرة جنوده وغيظهم منهم وقهرهم بهم {دائرة السـوء} التي دبروها وقدروها للمسـلمين لا خلاص لهم منها، فهم مخذولون

في كل موطن خذلاناً ظاهراً يدركه كل أحد، وباطناً يدركه من أراد الله تعالى من أرباب البصـائر كما اتفق في هذه العمرة، والسـوء- بالفتح والضـم: ما يسـوء كالكره إلا أنه غلب في أن يضـاف إلى ما يراد ذمه، والمضـموم جار مجرى الشر الذي هو ضد الخير- قاله في الكشاف.

ولما كان من دار عليه السوء قد لا يكون مغضوباً عيه، قال: {وغضب الله} أي الملك الأعظم بما له من صـفات الجلال والجمال فاسـتعلى غضـبه {عليهم}، وهو عبارة عن أنه يعاملهم معاملة الغضـبان بما لا طاقة لهم به.

ولما كان الغضـب قد لا يوجب الإهانة والإبعاد قال: {ولعنهم} أي طردهم طرداً سفلوا به أسفل سافلين، فبعدوا به عن كل خير.

ولما قرر ما لهم في الدارين، وكان قد يظن أنه يخص الدنيا فلا يوجب عذاب الآخرة، أتبعه بما يخصـها فقال: {وأعد} أي هيأ الآن {لهم جهنم} تلقاهم بالعبوسـة والغيظ والزفير والتجهم كما كانوا يتجهمون عباد الله مع ما فيها من العذاب بالحر والبرد والإحراق، وغير ذلك من أنواع المشـاق. ولما كان التقدير: فساءت معداً، عطف عليه قوله: {وساءت مصيراً *}.

ولما كان هذا معلماً بأن الكفار- مع ما يشاهد منهم من الكثرة الظاهرة والقوة المتضـافرة المتوافرة- لا اعتبار لهم لأن البلاء محيط بهم في الدارين، وكان ذلك أمراً يوجب تشـعب الفكر في المؤثر فيهم ذلك، عطف على ما تقديره إعلاماً بأن التدبير على هذا الوجه لحكم ومصالح يكل عنها الوصف، ودفعاً لما قد يتوهمه من لم يرسـخ إيمانه مما يجب التنزيه عنه: فللّه القوة جميعاً

يفعل ما يشــاء فيمن يشــاء من غير ســبب ترونه: {ولله} أي الملك الأعظم {جنود السماوات والأرض} فهو يسلط ما يشاء منها على من يشاء.

ولما كان ما ذكر من عذاب الأعداء وثواب الأولياء متوقفاً على تمام العلم ونـهاية القدرة التي يكون بها الانتقام والسـطوة قال تعالى: {وكان الله} الملك الذي لا أمر لأحد مع أزلاً وأبداً {عزيزاً} يغلب ولا يغلب {حكيماً *} يضــع الشيء في أحكم مواضعه، فلا يستطاع نقض شيء مما ينسب إليه سبحانه وتعالى.

ولما تبين أنه ليس لغيره مدخل في إيجاد النصــر، وكانت الســورة من أولها حضــــرة مخاطبة وإقبال فلم يدع أمر إلى نداء بياء ولا غيرها. وكان كأنه قيل: فما فائدة الرسالة إلى الناس؟ أجيب بقوله تقريراً لما ختم به من صفتي العزة والحكمة. {إنا} بما لنا من العزة والحكمة {أرســلناك} أي بما لنا من العظمة التي هي معنى العزة والحكمة إلى الخلق كافة {شاهداً} على أفعالهم من كفر وإيمان وطاعة وعصيان، من كان بحضرتك فبنفسك ومن كان بعد موتك أو غائباً عنك فبكتابك، مع ما أيدناك به من الحفظة من الملائكة.

ولما كانت البشارة محبوبة إلى النفوس رغبهم فيما عنده من الخيرات وحببهم فيه بصوغ اسم الفاعل منها مبالغة فيه فقال تعالى: {ومبشراً} أي لمن أطاع بأنواع البشــائر. ولما كانت لنذارة كريهة جداً، لا يقدم على إبلاغها إلا من كمل عرفانه بما فيها من المنافع الموجبة لتجشــم مرارة الإقدام على الصــدع بها، أتى بصيغة المبالغة فقال تعالى: {ونذيراً *}.

▲ تفسير الآيات رقم [9- 10]

{لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)}

ولما ذكر حال الرسالة، ذكر علتها فقال: {لتؤمنوا} أي الذين حكمنا بإيمانهم ممن أرسلناك إليهم- هذا على قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالغيب، وعلى قراءة الباقين بالخطاب المعنى. أيها الرسول ومن قضينا بهداه من أمته، مجددين لذلك في كل لحظة مستمرين عليه، وكذا الأفعال بعده، وذلك أعظم لطفاً لما في الأنس بالخطاب من رجاء الاقتراب {بالله} أي الذي لا يسوغ لأحد من خلقه- والكل خلقه- التوجه إلى غيره لاستجماعه لصفات الجلال والإكرام {ورسوله} الذي أرسله من له كل شيء ملكاً وملكاً إلى جميع خلقه.

ولما كان الإيمان أمراً باطناً، فلا يقبل عند الله إلا بدليل، وكان الإيمان بالرسول إيماناً بمن أرسله، والإيمان بالمرسل إيماناً بالرسول، وحد الضمير فقال: {ويعزروه} أي يعينوه ويقووه وينصروه على كل من ناواه ويمنعوه عن كل من يكيده، مبالغين في ذلك باليد واللسان والسيف، وغير ذلك من الشأن فيؤثروه على أنفسهم وغيرها، تعظيماً له وتفخيماً- هذا حقيقة المادة، وما خالفه فهو إما من باب الإزالة كالعزور بمعنى الديوث، وإما من باب الأول كاللوم والضرب دون الحد، فإنه يوجب للملوم والمضروب وتجنب ما نقم عليه فيعظم، فهو من إطلاق الملزوم على اللازم، وهو من وادي ما قيل:

عداي لهم فضل عليّ ومنة *** فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا

هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها *** وهم نافسوني فاقتنيت المعاليا

ولما كان المعنى يحتمل الإزالة كما ذكر، خلص المراد بقوله: {ويوقروه} أي يجتهدوا في حسـن اتباعه في تبجيله وإجلاله بأن يحملوا عنه جميع الأثقال، ليلزم السـكينة باجتماع همه وكبر عزمه لزوال ما كان يشـعب فكره من كل ما يهمه {ويسبحوه} أي ينزهوه عن كل وصمة من إخلاف الوعد بدخول مكة والطواف بـالبيت الحرام ونحو ذلك، ويعتقدوا فيـه الكمـال المطلق، والأفعال الثلاثة يحتمل أن يراد بها الله تعالى، لأن من سـعى في قمع الكفار فقد فعل فعل المعزر الموقر، فيكون إمـا عـائداً على المـذكور وإمـا أن يكون جعل الاسـمين واحداً إشـارة إلى اتحاد المسـميين، في الأمر فلما اتحد أمرها وحد الضمير إشارة إلى ذلك.

ولما كانت محبة الله ورسـوله ترضـى منها بدون النهاية قال كائناً عن ذلك: {بكرة وأصيلاً *} أي وعشياً إيصاناً لما بين النهار والليل بذلك.

ولما ذكر الرسـول صـلى الله عليه وسـلم ما أرسـله له، وختم الآية بأنه لا يرضـــى من ذكره وذكر رســوله إلا بالمداومة بالفعل أو بالقوة مع توحيده الضمير إشارة إلى وحدة الإرادة والمداوة بالفعل أو بالقوة مع توحيده الضمير إشـارة إلى وحدة الإرادة والمحبة من الرسـول والمرسـل، أوضـح المراد بتوحيد الضـــمير بقوله مرغباً في اتباعه ومرهباً لأتباعه عن أدنى فترة أو توان فيما دخلوا فيه من الإيمان الذي هو علة الرســال، وما ذكره معه في جواب من يسـأل: ما سـبب توحيد الضـمير والمذكور اثنان؟ مؤكداً لأجل ما غلب على الطباع البشـرية من التقيد بالوهم والنكوص عما غاب ولا مرشـد إليه سـوى العقل: {إن الذين}.

ولما كان المضــارع قد يراد به مطلق الوقوع لا بقيد زمن معين كما نقلته في أول ســــورة البقرة عن أبي حيان وغيره، عبر به ترغيباً في تجديد مثل ذلك والاستمرار عليه فقال: {يبايعونك} أي في بيعة الرضوان وقبلها وبعدها على ما جئت به من الرســالة التي مقصــودها الأعظم النذارة التي مبناها على المخالفة التي تتقاضــى الشــدائد التي عمادها الثبات والصــبر ، وســميت «مبايعة» لأنهم بايعوا أنفسـهم فيها من الله بالجنة وهذا معنى الإسـلام، فكل من أسـلم فقد باع نفسـه سـبحانه منه {إن الله اشـترى من المؤمنين أنفسـهم} [التوبة: 111]، الآية. {إنما يبايعون الله} أي الملك الأعظم لأن عملك كله من قول وفعل له {وما ينطق عن الهوى} [النجم: 3].

ولما عظم بيعته بما رغب فيها ترغيباً مشـــعراً بالترهيب، زادها تعظيماً بما الترهيب فيه أظهر من الأول، فقال مبيناً للأول : {يد الله} أي المتردي بالكبرياء. ولما كان منزهاً. عما قد يتوهم من الجارحة مما فيه شائبة نقص، أومأ إلى نفي ذلك بالفوقية مع ما فيه من الدلالة على تعظيم البيعة فقال : {فوق أيديهم} أي في المبايعة عالية عليهم بالقدرة والقوة والقهر والعزة، والتنزه عن كل شـائبة نقص، ولذلك كرر الاسم الأعظم في هذه ثلاث مرات إشـارة إلى العظمة الفائتة للوصــــف والغيب العالي عن الإدراك، ثم أعاد ذكره بالضـــمير إيذاناً بالغيب المحض، هذا هو المراد من تعظيم البيعة وإجلال الرسـول صـلى الله عليه وسـلم مع العلم القطعي بتنزيه الله سـبحانه عن كل شــائبة نقص من حلول أو اتحاد كما هو واضــح في مجاري عادات العرب ظاهر جداً في دأبهم في محاوراتهم، لا يشــك فيه منهم عاقل عالم أو جاهل

أصـــلاً، فلعنة الله على من حمله على الظاهر من أهل العناد ببدعة الاتحاد على من تبعهم على ذلك من الرعاع الطغام الذي شـــاقوا الله ورســـوله عليه الصـــلاة والســـلام، وجميع الأئمة الأعلام، وســـائر أهل الإســـلام: ورضـــوا لأنفسهم بأن يكونوا أتباع فرعون اللعين، وناهيك به في ضلال مبين.

ولما كان كلام الله تعالى- وإن جرى مجرى الشـــــرط والتهديد لا بد أن يقع منه شيء وإن قل، وكان من سر التعبير بالمضارع «يبايعونك» الإشارة إلى نكث الجد بن قيس أصـــل بيعته على الإســـلام فإنه اختبأ في الحديبية وقت البيعة في وقت من الأوقات، فلم يبايع، ســــبب عن ذلك وفصــــل ترغيباً وترهيباً، فقال معبراً بالماضـــي إيذاناً بأنه لا ينكث أحد من أهل هذه البيعة: {فمن نكث} أي نقض في وقت من الأوقات فجعلها كالكســـاء الخلق والحبل البالي الذي ينقض {فإنما ينكث} وعبر بالمضـــارع إشـــارة إلى أن من فعل النكث فهو في كل لحظة ناكث نكثاً جديداً {على نفســه} لا على غيرها فإنه بمرأى من الله ومسـمع وهو قادر عليه جدير بأن يعاقبه بعد ما عجل لنفســه من العار العظيم في الدنيا ويستحل به على نكثه عذاباً أليماً، ولا يضر ذلك رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم شـيئاً فإن الله ناصـره لا محالة، وكذا كل منكوث به إذا أراد الله نصرته فإن يده سبحانه فوق كل يد.

ولما أتم الترهيب لأنه مقامه للحث على الوفاء الذي به قيام الدين على أبلغ وجه، أتبعه على عادته الترغيب إتماماً للحث فقال تعالى: {ومن أوفى} أي فعل الإتمام والإكثار والإطالة {بما عهد} وقدم الظرف اهتماماً به فقال: {عليه الله} أي الملك المحيط بكل شـيء قدرة وعلماً من هذه المبايعة وغيرها

فإنما وفاؤه لنفسه {فسيؤتيه} أي بوعد لا خلف فيه {أجراً عظيماً *} لا يسع عقولكم شرح وصفه، ومن قرأ بالنون أظهر ما ستر في الجلالة من التعظيم، والآية من الاحتباك : ذكر أولاً أن النكث عليه دليلاً على أن الوفاء له ثانياً، وإيتاء الأجر ثانياً دليلاً على إحلال العقاب أولاً وسره أنه بين أن ما يرديه الناكث من الأذى لغيره إنما هو واقع به، لأن ذلك أعظم في الترهيب عن النكث لما جبل الإنسان عليه من النفرة عن ضر نفسه وبعده عنه، وذكر الأجر للموفي لأنه أعظم في الترغيب، وسبب بيعة الرضوان هذه «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فهم من بروك ناقته في الحديبية الإشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أنه لم يأذن في دخولهم البلد الحرام في هذه السفرة، فمشى مع إرادته سبحانه وتعالى لأنه ليس فيها مخالفة لما أمر به سبحانه إلى أن وقع الصلح الذي كان الفتح هو بعينه، وكان في غضون ذلك أن أرسل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه إلى مكة المشرفة ليخبر قريشاً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجئ لقتال وأنه لا يريد إلا الاعتمار، فأرجف مرجفون بأنه قد قتل، فعزم النبي صلى الله عليه وسلم على مناجزتهم فبايع الصحابة رضي الله عنهم على أن لا يفروا عنه، فبايع كل من كان معه إلا جد بن قيس، فإنه اختبأ تحت إبط بعيره فلم يبايع، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:» كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر «.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 15]

{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا

أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (14) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15)}

ولما ذكر سبحانه وتعالى أهل بيعة الرضوان، وأضافهم إلى حضرة الرحمن، تشوف السامع إلى الخبر عمن غاب عن ذلك الجناب، وأبطأ عن حضرة تلك العمرة، فاستؤنف الإخبار عما ينافقون به بقوله تعالى: {سيقول} أي بوعد لا خلف فيه، وأكد أمر نفاقهم تنبيهاً على جلدهم فيه ووقاصهم به ولطف النبي صلى الله عليه وسلم وشدة رحمته ورفقه وشفقته فقال: {لك} أي لأنهم يعلمون أنك ألطف الخلق عشرة وأعظمهم شفقة على عباد لله، فهم يطمعون في قبولك من فساد عذرهم ما لا يطمعون فيه من غيرك من خلص المؤمنين، وغاب عنهم– لما عندهم من غلظ الأكباد أن الكذب بحضرتك في غاية القباحة لأنك أعظم الخلق وأفطنهم، مع ما يأتيك من الأنباء عن علام الغيوب، وحقر أمرهم بسلب العقل عنهم وجعلهم مفعولين لا فاعلين إشارة إلى أنهم طردوا عن هذا المقام، لأنهم أشرار لئام، فقال تعالى {المخلفون} أي الذين– خلفهم الله عنك ولم يرضهم لصحبتك في هذه العمرة، فجعلهم كالشيء التافه الذي يخلفه الإنسان، لأنه لا فائدة فيه فلا يؤبه له ولا

يعبأ به، وذلك إنه صـــلى الله عليه وســـلم لما أراد الاعتمار ندب أصـــحابه رضـــــوان الله عليهم أجمعين لذلك، وندب من الأعراب الذين حول المدينة الشريفة من كان قد أقر بالإسلام، فلم يرد الله حضورهم لأن إسلامهم لم يكن خالصاً فلو حضروا لفسد بهم الحال، وإن حفظ الله بحوله وقوته من الفساد، أعقب ذلك فســـاداً آخر وهو أن يقال: إنه لم يكف عنهم الأعداء إلا الكثرة، فتخلفوا لما علم الله في تخلفهم من الحكم.

ولما كان قد تخلف بالجســـد من خلص الأنصـــار وغيرهم من كان حاضـــراً معه صـــلى الله عليه وســـلم بالقلب أخرجهم بقوله: {من الأعراب} أي أهل البادية كذباً وبهتاناً جرأة على الله ورسوله {شـغلتنا} أي عن إجابتك في هذه العمرة {أموالنا وأهلونا} أي لأنا لو تركناها ضاعت، لأنه لم يكن لنا من يقوم بها وأنت قد نهيت عن إضاعة المال والتفريط في العيال، ثم سببوا عن هذا القول المراد به السوء قولهم: {فاستغفر} أي اطلب المغفرة {لنا} من الله إن كنا أخطأنا أو قصرنا.

ولما كان هذا ربما يغتر به من لا خبرة له، رده تعالى بقوله منبهاً على أن من صدق مع الله لم يشغله عن شاغل، ومن شغله عنه شيء كان شوماً عليه: {يقولون} وعبر بالمضارع إشارة إلى أن هذا ديدن لهم لا ينفكون عنه. ولما صـــح بعد ذلك إيمان، لم يعبر بالأفواه دأبه، في المنافقين، بل قال: {بألسنتهم} أي في الشغل والاستغفار، وأكد ما أفهمه ذكر اللسان من أنه قول ظاهري نفياً للكلام الحقيقي الذي هو النفســـي بكل اعتبار بقوله: {ما ليس في قلوبهم} لأنهم لم يكن شغل ولا كانت لهم نية في سؤال الاستغفار.

ولما كان فعلهم هذا من تخلفهم واعتلالهم وسؤالهم الاستغفار ظناً منهم أنهم يدفعون عن أنفسهم بذلك المكروه ويحصلون لها المحبوب وكان كأنه قيل: قد علم كذبهم، فماذا يقال لهم؟ استأنف سبحانه الجواب بقوله: {قل} أي لهؤلاء الأغبياء واعظاً لهم مسبباً عن مخادعتهم لمن لا يخفى عليه خافية إشارة إلى أن العاقل يقبح عليه أن يقدم على ما هو بحيث تخشى عاقبته: {فمن يملك لكم} أيها المخادعون {من الله} أي الملك الذي لا أمر لأحد معه لأنه لا كفوء له {شيئاً} يمنعكم منه {إن أراد بكم} أي خاصة {ضراً} أي نوعاً من أنواع الضرر عظيماً أو حقيراً، فأهلك الأموال والأهلين وأنتم محتاطون في حفظهما فلا ينفعها حضوركم أو أهلككم أنتم {أو أراد بكم نفعاً} بحفظهما به مع غيبتكم فلا يضرها بعدكم عنها، ويحفظكم في أنفسكم، وقد علم من تصنيفه سبحانه حالهم إلى صنفين مع الإبهام أنه يكون لبعضهم الضر لأن منهم من ارتد في زمن الردة، ولبعضهم النفع لأنه ثبت على الإسلام.

ولما كان التقدير قطعاً: لا أحد يملك منه سبحانه لهم شيئاً من ذلك بل هو قادر على كل ما يريد منه، فعلكم لما عندكم من الجلافة والغباوة والكثافة فعل من يظن أنه لا يقدر عليكم ولا يعلم كثيراً مما تعملون، فيخفى عليه كذبكم، وليس الأمر كما ظننتم فإنه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، بنى عليه ما أرشد إلى تقديره فقال تعالى: {بل كان الله} أي المحيط أزلاً وأبداً بكل شيء قدرة علماً {بما تعملون} أي الجهلة {خبيراً *} أي يعلم بواطن أموركم هذه وغيرها كما يعلم ظواهرها.

ولما أضـــرب عن ظنهم أن كذبهم يخفى عليه بأمر عام، وقدمه لأنه أعم نفعاً بما فيه من الشمول، أتبعه الإضراب عن مضمون كلامهم فقال: {بل} أي ليس تخلفكم لما أخبرتم به من الاشـتغال بالأهل والأموال {ظننتم} وأنتم واقفون مع الظنون الظاهرة، ليس لكم نفوذ إلى البواطن، وأشـــار إلى تأكد ظنهم على زعمهم فقال: {أن لن ينقلب} ولما كان الكلام فيما هو شـــأن الرسول من الانبعاث والمسير، قال مشيراً إلى أن من أرسل رسولاً إلى شيء وهو لا يقدر على نصـره ليبلغ ذلك الشـيء إلى الغاية التي أرادها منه كان عاجزاً عما يريد: {الرسول} وعظم التابعين فقال: {والمؤمنون} معبراً بما يحق لهم من الوصـف المفهم للرسـوخ وأفهم تأكيد ذلك عندهم بقوله تعالى: {إلى أهليهم أبداً} أي لما في قلوبكم من عظمة المشركين وحقارة المؤمنين فحملكم ذلك على أن قلتم: ما هم في قريش إلا أكلة رأس.

ولما كان الإنسان قد يظن ما لا يجب، قال مشيراً بالبناء للمفعول إلى أن ما حوته قلوبهم مما ينبغي أن ينزه سبحانه وتعالى عن نسبته إليه وإن كان هو الفاعل له في الحقيقة: {وزين ذلك} أي الأمر القبيح الذي خراب الدنيا {في قلوبكم} حتى أحببتموه.

ولما علم أن ذلك سـوء، صـرح به على وجه يعم غيره فقال: {وظننتم} أي بذلك وغيره مما يترتب عليه من إظهار الكفر وما يتفرع منه {ظن السـوء} أي الذي لم يدع شـيئاً مما يكره غاية الكراهة إلا أحاط به. ولما انكشـف جميع أمره كشـف أثره فقال: {وكنتم} أي بالنظر إلى جمعكم من حيث هو جمع في علمنا قبل ذلك بما جبلناكم عليه وعلى ما كشفه الحال عنه من له

بصيرة {قوماً} أي مع قوتكم على ما تحاولونه {بوراً *} أي في غاية الهلاك والكساد والفساد، وعدم الخير لأنكم جبلتم على ذلك الفساد، فلا انفكاك لهم عنه، وهذا كما مضى بالنظر إلى الجميع من حيث هو جمع لا بالنسبة إلى كل فرد فإنه قد أخلص منهم بعد ذلك كثير، وثبتوا فلم يرتدوا.

ولما كان التقدير: ذلك لأنكم لم تؤمنوا، فمن آمن منكم ومن غيركم وأخلص، أبحناه جنة وحريراً، عطف عليه قوله معمماً: {ومن لم يؤمن} منكم ومن غيركم {بالله} أي الذي لا موجود في الحقيقة سواه {ورسوله} أي الذي أرسله لإظهار دينه وهو الحقيق بالإضافة إليه، معبراً عنه بالاسم الأعظم، وللزيادة في تعظيمه وتحقير شانئه وتوهية كيد التفت إلى مقام التكلم بمظهر العظمة فقال: {فإنا} أي على ما لنا من العظمة {أعتدنا} له أو لهم هكذا كان الأصل، ولكنه قال معلقاً للحكم بالوصف إيذاناً بأن من لم يجمع الإيمان بهما فهو كافر، وإن السعير لمن كان كفره راسخاً فقال تعالى: {للكافرين} أي الذين لا يجمعون الإيمان بالمرسل والرسول فيكونون بذلك كفاراً، ويستمرون على وصف الكفر لأنهم جبلوا عليه {سعيراً *} أي ناراً شديدة الإيقاد والتلهب، فهي عظيمة الحر توجب الجنون وإيقاد الباطن بالجوع بحيث لا يشبع صاحبه والانتشار بكل شر، فإن التنكير هنا للتهويل والتعظيم، وهذه الآية مع ما أرشد السياق إلى عطفها عليه ممن يؤمن دالة- وإن كانت في سياق الشرط- على أن أكثرهم يخلص إيمانه بعد ذلك.

ولما انقضى حديث الجنود عامة ثم خاصة من المنتدبين والمخلصين وختم بعذاب الكافرين، وكان المتصرف في الجنود ربما كان بعض خواص الملك،

فلا يكون تصرفه فيهم تاماً، وكان الملك قد لا يقدر على عذاب من أراد من جنوده، وكان إذا قدر قد لا يقدر على العذاب بكل ما يريده من السـعير الموصوف وغيره لعدم عموم ملكه قال تعالى عاطفاً على آية الجنود: {ولله} أي الملك الأعظم وحده {ملك السـماوات والأرض} أي من الجنود وغيرها، يدبر ذلك كله كيف يشاء لا راد لحكمه ولا معقب.

ولما لم يكن في هؤلاء من عذب بما عذب الأمم الماضية من الريح وغيرها، لم يذكر ما بين الخافقين، وذكر نتيجة التفرد بالملك بما يقتضـيه الحال من الترغيب والترهيب: {يغفر لمن يشـاء} أي لا اعتراض لأحد عليه بوجه ما {ويعذب من يشاء} أي لأنه لا يجب عليه شيء ولا يكافيه شيء، وليس هو كالملوك الذين لا يتمكنون من مثل ذلك لكثرة الأكفاء المعارضـين لهم في الجملة، وعلم من هذا التقسيم المبهم أيضـاً أن منهم من يرتد فيعذبه، ومنهم من يثبت على الإسـلام فيغفر له لأنه لا يعذب بغير ذنب وإن كان له أن يفعل ذلك، لأنه لا يسأل عما يفعل وملكه تام، فتصرفه فيه عدل كيفما كان.

ولما كان من يفعل الشـيء في وقت قد لا يستمر على وصـف القدرة عليه قال تعالى: {وكان الله} أي المحيط بصـفات الكمال أزلاً وأبداً، لم يتجدد له شـيء لم يكن. ولما ابتدأ الآية بالمغفرة ترغيباً في التوبة، ختم بذلك لأن المقام له، وزاد الرحمة تشـريفاً لنبي المرحمة بالترغيب والدلالة على أن رحمته غلبت غضـبه فقال: {غفوراً} أي لذنوب المسـيئين {رحيماً *} أي مكرماً بعد السـتر بما لا تسـعه العقول، وقدرته على الإنعام كقدرته على الانتقام. ولما ذم المخلفين بما منه– أي من الذم– أنهم هالكون بعد أن قدم

أنه لعنهم، وكان قد وعد سبحانه أهل الحديبية فتح خيبر جبراً لهم بما منعهم من الاستيلاء على مكة المشرفة لما له في ذلك من الحكم البالغة الدقيقة، وختم بأنه نافذ الأمر، وكان ذلك مستلزماً لإحاطة العلم، دل على كلا الأمرين بقوله استئنافاً، جواباً لمن كأنه قال: هل يغفر للمخلفين حتى يكونوا كأنهم ما تخلفوا؟: {سيقول} أي بوعد لا خلف فيه.

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم بحيث لا مطمع لأحد فى أن يظفر منه بشيء من خلاف الأمر الله، أسقط ما عبر به في ذكرهم أولاً من خطابه وقال: {المخلفون} أي لمن يطمعون فيه من الصحابة أن يسعى في تمكينهم من المسير في جيشه صلى الله عليه وسلم لخفاء الحكم عليه ونحو ذلك، ولم يقيدهم بالأعراب ليعم كل من كان يتخلف من غيرهم {إذا انطلقتم} بتمكين الله لكم {إلى مغانم}.

ولما أفهم اللفظ الأخذ، والتعبير بصيغة منتهى الجموع كثرتها، صرح بالأول رفعاً للمجاز فقال: {لتأخذوها} أي من خيبر {ذرونا} أي على أي حالة شئتم من الأحوال الدنية {نتبعكم} ولما كان يلزم من تمكينهم من ذلك إخلاف وعد الله بأنها تخص أهل الحديبية، وأنه طرد المنافقين وخيب قصدهم، علل تعالى قولهم بقوله: {يريدون} أي بذهابكم معكم {أن يبدلوا كلام الله} أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً في الإخبار بلعنهم وإبارتهم، وأن فتح خيبر مختص بأهل الحديبية، لا يشركهم فيه إلا من وافقهم في النية والهجرة، ليتوصلوا بذلك إلى تشكيك أهل الإسلام فيه، والمراد أن فعلهم فعل من يريد

ذلك، ولا يبعد أن يكونوا صـــــنفين : منهم من يريد ذلك، ومنهم من لم يرده ولكن فعل من يريده.

ولما كان السامع جديراً بأن يسأل عما يقال لهم، قال مخاطباً لأصدق الخلق عليه الصلاة والسلام: {قل} أي يا حبيب لهم إذا بلغك كلامهم أنت بنفسك، فإن غيرك لا يقوم مقامك في هذا الأمر المهم، قولاً مؤكداً: {لن تتبعونا} وإن اجتهدتم في ذلك، وســـاقه مســـاق النفي وإن كان المراد به النهي، لأنه مع كونه آكد يكون علماً من أعلام النبوة، وهو أزجر وأدل على الاستهانة.

ولما أذن هذا التأكيد أنه من عند من لا يخالف أصـلاً في مراده، بينه تعالى بقوله: {كذلكم} أي مثل هذا القول البديع الشـأن العلي الرتبة {قال الله} أي الذي لا يكون إلا ما يريد وليس هو كالملوك الذين لا قدرة لهم على الغفران لمن شـــاؤوا والعقاب لمن شـــاؤوا {من قبل} هذا الوقت، وهو الذي لا يمكن الخلف في قوله، فإنه قضـى أن لا يحضـر «خيبر» المرادة بهذه الغنائم إلا من حضر الحديبية، وأمر بذلك فكان ما قال بعد اجتهاد بعض المخلفين في إخلافه فإنهم غيّرهم الطمع بعد ســـماعهم قول الله هذا، فطلبوا أن يخرجوا معه صلى الله عليه وسلم فمنعوا فلم يحضـرها غيرهم أحد، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذي الحجة سـنة سـت، فأقام إلى أثناء محرم ســـنة ســـبع، وخرج بأهل الحديبية إلى خيبر ففتحها الله عليه، وأخذ جميع أموالها من المنقولات والعقارات، وأتى إليه صـلى الله عليه وسـلم وهو بها بعد فتحها ابن عمه جعفر بن أبي طالب رضـــــي الله عنه وبعض من

معهم من مهاجرة الحبشة، فأشركهم النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل الحديبية لأنهم لم يكونوا مخلفين بل كانوا متخلفين لعذر عدم الإدراك.

ولما كانوا منافقين لا يعتقدون شيئاً من هذه الأقوال، بل يظنون أنها حيل على التوصل إلى المرادات الدنيوية، سبب عن قولهم له ذلك تنبيهاً على جلافتهم وفساد ظنونهم: {فسيقولون}: ليس الأمر كما ذكر مما ادعى أنه قول الله {بل} إنما ذلكم لأنكم {تحسدوننا} فلا تريدون أن يصل إلينا من مال الغنائم شيء. ولما كان التقدير: وليس الأمر كما زعموا، رتب عليه قوله: {بل كانوا} أي جبلة وطبعاً {لا يفقهون} أي لا يفهمون فهم الحاذق الماهر {إلا قليلاً *} في أمر دنياهم، ومن ذلك إقرارهم بالإيمان لأجلها، وأما أمور الآخرة فلا يفهمون منها شيئاً.

▲ تفسير الآيات رقم [16- 17]

{قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17)}

ولما كان ذلك يوقع في نفس السامع السؤال عن هذا الطرد: هل يستمر؟ أجيب بأنهم سيمتحنون بأمر شاق يحدثه الله للتمييز بين الخلص وغيرهم، فقال مكرراً لوصفهم بالتخلف إعلاماً بأنهم في الحقيقة ما تخلفوا، بل منعوا طرداً لهم وإبعاداً معذباً لهم بما خلفهم عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم

في هذه العمرة من الخوف من قتال قريش لشدة بأسهم كما أثاب المحبين له صلى الله عليه وسلم بضد ما عزموا عليه من القتال إلى النصر أو الموت من كف أيديهم عنهم بما جعله الله سـببا للفتح الأعظم والتفرغ لفتح خيبر وأخذ غنائمها الكثيرة من غير كبير كلفة {قل} يا أعظم الخلف {للمخلفين} وزاد في ذمهم بنسـبتهم إلى الجلافة فقال: {من الأعراب} أي أهل غلظ الأكباد، ويجوز أن يكون هذا القيد للاحتراز عن المخلفين من أهل المدينة فيكون إشارة إلى أن الأعراب ينقسمون عند هذا الدعاء إلى مطيع وعاص- كما أشار إليه تقسيمه سبحانه لهم- وأن المخلفين من أهل المدينة لمثل ما اعتل به الأعراب لا مطمع في صـلاحهم: {سـتدعون} بوعد لا خلف فيه بإخبار محيط العلم والقدرة دعوة محيطة ونفيراً عاماً لما أفهمه الإسـناد إلى جميعهم من داع صـحت إمامته فوجبت طاعته، ودل على بعدهم من أرضهم بقوله تعالى: {إلى قوم}.

ولما أفهم التعبير بذلك أن لهم قوة وشـدة على ما يحاولونه، أوضـح المعنى بقوله: {أولي بأس} أي شدة في الحرب وشجاعة مع مكر ودهاء {شديد}. ولما كان المعنى كأنه قيل: لماذا؟ قال تعالى: {تقاتلونهم} أي بأمر إمامكم {أو يسلمون} أي يدعوكم إليهم ليكون أحد الأمرين المظهرين لأن كلمة الله هي العليا: المقاتلة منكم أو الإسـلام منهم، فإن لم يسـلموا كان القتال لا غير، وإن أسلموا لم يكن قتال، لأن الإمام لا غرض له إلا إعلاء كلمة الله، ولا يكون شـيء غير هذين الأمرين من إبقاء بجزية أو مصـالحة أو متاركة إلى مدة، ونحو ذلك، وهذا الداعي هو أبو بكر الصـديق رضـي الله عنه

والقوم بنو حنيفة وغيرهم من أهل الردة الذين كان الدعاء لهم أول خلافة الصـــديق رضـــي الله عنه، وأما قول من قال: إنهم ثقيف، فضـــعيف، لأن الدعاء لم يكن إليهم إنما كان المقصـــود بالذات فتح مكة، وكان أمر هوازن وثقيف وغيرهما تبعاً له في غزوته، لم يكن بينهم شـــيء، وأيضـــاً فإن ثقيف لما عسـر أمرهم تركهم النبي صـلى الله عليه وسـلم حتى أسـلموا بعد ذلك، وترك أيضـــاً فلاّل هوازن فلم يتبعهم ولم يؤمر باتباعهم، فظاهر الآية أنه إذا انتشـــب القتال لم يترك إلا أن حصـــل الإســـلام، والقول بأنهم فارس والروم ضـعيف أيضـاً، فإن كلاًّ منهم تقبل منه الجزية، وتأويله بأنه إسـلام لغوي لا داع له مع إمكان الحقيقة، وقد كان ما أشـــار إليه التقســـيم فإنهم لما دعوا إليهم انقسموا إلى مجيب وهم الأكثر، وقد آتاهم الله الأجر الحسن في الدنيا بالغنيمة والذكر الجميل وهو المرجو في الآخرة، ومرتد وهم قليل وقد أذاقهم الله العذاب الأليم في الدنيا بالقتل على أقبح حال، وهو يذيقهم في الآخرة أعظم النكال، وأما قتال غير العرب فأطاع فيه الكل ولم يحصـــــل فيه ما أشـــير إليه من التقســـيم، فتحقق بهذا أنهم أهل الردة- والله الموفق، ولذلك سـبب عن دعوة الحق قوله مردداً القول في حالهم مبهماً له إشـارة إلى أنهم عند الدعاء ينقســـمون إلى مقبل ومتول: {فإن تطيعوا} أي توقعوا الطاعة للداعي إلى ذلك، وهو أبو بكر رضــــي الله عنه {يؤتكم الله} أي الذي له الإحاطة والقدرة على الإعطاء والمنع، لا راد لأمره {أجراً حسناً} دنيا وأخرى، جعل الله طاعة أبي بكر رضـي الله عنه في هذا الأمر بالخصـوص كطاعة رســـول الله صـــلى الله عليه وســـلم الذي طاعته طاعة الله، جزاء له على

خصوصه في مزيد تسليمه لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من الصلح وثباته بما أجاب به عمر رضي الله عنهما بمثل جواب النبي صلى الله عليه وسلم من غير أن يكون حاضراً له كما هو معلوم من السيرة.

ولما كانت مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن يقوم مقامه لا تكون إلا من منازعة في الفطرة الأولى ومعالجة لها، عبر بالتفعل فقال: {وإن تتولوا} عن قبول دعوته عصياناً {كما توليتم} أي عالجتم أنفسكم وكلفتموها التولي بالتخلف عن الرسول صلى الله عليه وسلم {من قبل} أي بعض الأزمان التي تقدمت على هذا الدعاء، وذلك في الحديبية {يعذبكم} أي يخالطكم بعقوبة تزيل العذوبة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما {عذاباً أليماً *} لأجل تكرر ذلك منكم.

ولما توعد المتخلفين بتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توعدهم في التقاعد عن هذا الإمام القائم بعده بالحق، وكان أهل الأعذار لا يتيسر لهم ما أريد بهذا الدعاء، وكان الدين مبنياً على الحنيفية السمحة، استأنف قوله تعالى مسكناً لما اشتثاره الوعيد من روعهم: {ليس على الأعمى} أي في تخلفه عن الدعاء إلى الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم أو مع غيره من أئمة الدعاء {حرج} أي ميل بثقل الإثم لأجل أن عماه موهن لسعيه وجميع بطشه، ولأجل تأكيد المعنى تسكيناً لما ثار من روع المؤمن كرر النافي والحرج في كل جملة مستقلة تأكيداً لهذا الأمر فقال: {ولا على الأعرج} وإن كان نقصه أدنى من نقص العمى {حرج} وجعل كل جملة مستقلة تأكيداً لهذا الحكم.

ولما ذكر هذين الأثرين الخاصـــين المزيد ضــــررهما في العاقة عن كمال الجهاد، عم بقوله: {ولا على المريض} أي بأيّ مرض {حرج} فلم يخرج أهل هذه الأعذار الذين لم يمنعهم إلا إعذارهم عن أهل الحديبية، وأطلب الحرج المنفي ليقبل التقدير بالتخلف ولا حاجة لأن حضـــورهم لا يخلو عن نفع في الجهاد، وذكر هكذا دون أسلوب الاستثناء إيذاناً بأنهم لم يدخلوا في الوعيد أصلاً حتى يخرجوا منه.

ولما بشـــر المطيعين لتلك الدعوة وتوعد القاعدين عنها وعذر المعذورين، وكانت إجابة المعذورين جائزة، بل أرفع من قعودهم، ولذلك لم ينف إجابتهم إنما نفى الحرج، قال معمماً عاطفاً على ما تقديره: فمن تخلف منهم فتخلفه مباح له: {ومن يطع الله} أي المحيط بجميع صـــفات الكمال المفيض من آثار صفاته على من يشاء ولو كان ضعيفاً، المانع منها من يشاء وإن كان قوياً {ورســـوله} من المعذورين وغيرهم فيما ندبا إليه من أي طاعة كانت إجابته {يدخله} أي الله الملك الأعظم جزاء له {جنات تجري} ونبه على قرب منال الماء بإثبات الجار في قوله: {من تحتها الأنهار} أي ففي أي موضـع أردت أجريت نهراً {ومن يتول} أي كائناً من كان من المخاطبين الآن وغيرهم، عن طاعة من الطاعات التي أمرا بها من أي طاعة كانت {يعذبه} أي على توليه في الدارين أو إحداهما {عذاباً أليماً *} وقراءة أهل المدينة والشـــام {ندخله ونعذبه} بالنون أظهر في إرادة العظمة لأجل تعظيم النعمة والنقمة.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 21]

{لَقَدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّـجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّـكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِـرَاطًا مُسْـتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرًا (21)}

ولما وعد المطيع وأوعد العاصي، وكانت النفوس إلى الوعد أشد التفاتاً، دل عليه بثواب عظيم منه أمر محسوس يعظم جذبه للنفوس القاصرة عن النفوذ في عالم الغيب، فقال مؤكداً لأن أعظم المراد به المذبذبون، مفتتحاً بقد لأن السياق موجب للتوقع لما جرى من السنة الإلهية أنها إذا شوقت إلى شيء دلت عليه بمشـهود يقرب الغائب الموعود: {لقد رضـي الله} أي الذي له الجلال والجمال {عن المؤمنين} أي الراسـخين في الإيمان، أي فعل معهم فعل الراضـي بما جعل لهم من الفتح وما قدر له من الثواب، وأفهم ذلك أنه لم يرض عن الكافرين فخذلهم في الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة، فالآيات تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور مشاهدة.

ولما ذكر الرضى، ذكر وقته للدلالة على سببه فقال: {إذ} أي حين، وصور حالهم إعلاماً بأنها سارة معجبة شديدة الرسوخ في الرضى فقال: {يبايعونك} في عمرة الحديبية لما صـد المشـركون عن الوصـول إلى البيت، فبعثت عثمان رضـي الله عنه إليهم ليخبرهم بأنك لم تجئ لقتال وإنما جئت للعمرة، فبلغك أنهم قتلوه فندبت إلى البيعة لمناجزتهم فبايعك كل من كان معك على

أن لا يفروا لتناجز بهم القوم؛ وزاد الأمر بياناً وقيده تفضـــيلاً لأهل البيعة بقوله: {تحت الشجرة} واللام للعهد الذهني، وكانت شجرة في الموضع الذي كان النبي صـــلى الله عليه وسـلم نازلاً به في الحديبية، ولأجل هذا الرضـــى سميت بيعة الرضوان، وروى البغوى من طريق الثعلبي عن جابر رضي الله عنه أن النبي صــــلى الله عليه وســـلم قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

ولما دل على إخلاصهم بما وصفهم، سبب عنه قوله: {فعلم} أي لما له من الإحاطة {ما في قلوبهم} أي من مطابقته لما قالوا بألسـنتهم في البيعة، وأن ما حصـل لبعضـهم من الاضـطراب في قبول الصـلح والكآبة منه إنما هو لمحبة الله ورســوله صـــلى الله عليه وســـلم وإيثار ما يريد من إعلاء دينه وإظهاره لا عن شـــك في الدين، وســـبب عن هذا العلم ترغيباً في مثل هذا المحدث عنهم قوله: {فأنزل السـكينة} أي بثبات القلوب وطمأنيتها في كل حالة ترضـــي الله ورســوله، ودل على عظمها بحيث إنها تغلب الخوف وإن عظم بقوله: {عليهم} فأثر ذلك أنهم لم يخافوا عاقبة القتال لما ندبوا إليه وإن كانوا في كثرة الكفار كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، لا أثر الصلح بما يتراءى فيه من الضـــعف وغيره من مخايل النقص في قلوبهم في ذلك المقام الدحض والمواطن الضنك إلا ريثما رأوا صدق عزيمة الرسول صلى الله عليه وسلم ومضى أمره في ذلك بما يفعل ويقول.

ولما ذكر منّه سبحانه وتعالى عليهم بما هو الأصل الذي لا يبنى إلا عليه، أتبعه آثاره فقال: {وأثابهم} أي أعطاهم جزاء لهم على ما وهبهم من الطاعة

والســـكينة فيها جزاء، مقبلاً عليهم، يملأ مواضــــع احتياجهم، هو أهل لأن يقصـده الإنسـان ويتردد في طلبه لما له من الإقبال والمكنة والشمول {فتحاً} بما أوقع سـبحانه من الصــلح المترتب على تعجيز قريش عن القتال {قريباً *} بترك القتال الموجب بعد راحتهم وقوتهم وجمومهم لاختلاط بعض الناس ببعض فيدخل في الدين من كان مباعداً له لما يرى من محاسـنه، فسـيكون الفتح الأعظم فتح المكة المشرفة الذي هو سبب لفتح جميع البلاد.

ولما ذكر الفتح ذكر بعض ثمرته فقال: {ومغانم} فنبه بصيغة منتهى الجموع إلى أنها عظيمة، ثم صــرح بذلك في قوله: {كثيرة} ولما كان الشـــيء ربما أطلق على ما هو بالقوة دون الفعل، أزال ذلك بقوله تعالى {يأخذونها} وهي خيبر. ولما كان ذلك مسـتبعداً لكثرة الكفار وقلة المؤمنين، بين سـببه فقال عاطفاً على ما تقديره: بعزة الله وحكمته: {وكان الله} أي الذي لا كفوء له {عزيزاً} أي يغلب ولا يغلب {حكيماً *} يتقن ما يريد فلا ينقض.

ولما قرب ذلك وتأكد وتحرر وتقرر، أقبل ســـبحانه وتعالى عليهم بالخطاب تأكيداً لمسامعهم فقال مزيلاً لكل احتمال يتردد في خواطر المخلفين: {وعدكم الله} أي الملك الأعظم {مغانم} وحقق معناها بقوله: {كثيرة تأخذونها} أي فيما يأتي من بلدان شـتى لا تدخل تحت حصــر، ثم سـبب عن هذا الوعد قوله: {فعجل لكم} أي منها {هذه} أي القضـية التي أوقعها بينكم وبين قريش من وضع الحرب عشر سنين، ومن أنكم تأتون في العام المقبل في مثل هذا الشـهر معتمرين فإنها سبب ذلك كله، عزاه أبو حيان لابن عباس رضـي الله عنهما وهو في غاية الظهور، ويمكن أن يكون المعنى: التي فتحها عليكم

من خيبر من سـببها وأموالها المنقولات وغيرها {وكف أيدي الناس} أي من أهل خيبر وحلفائهم أســـد وغطفان أن يعينوا أهل خيبر أو يغيروا على عيالاتكم بعد ما وهموا بذلك بعد ما كف أيدي قريش ومن دخل في عهدهم بالصلح {عنكم} على ما أنتم فيه من القلة والضعف.

ولما كان التقدير : رحمة لكم على طاعتكم لله ورســوله وجزاء لتقوى أيديكم، وتروا أســـباب الفتح القريبة بما يدخل من الناس في دينكم عند المخاطبة بســبب الإيمان، عطف عليه قوله: {ولتكون} أي هذه الأســباب من الفتح والإسـلام {آية} أي علامة هي في غاية الوضـوح {للمؤمنين} أي منكم على دخول المســـجد الحرام آمنين في العمرة ثم في الفتح ومنكم ومن غيركم من الراســـخين في الإيمان إلى يوم القيامة على جميع ما يخبر الله به على ما وقع التدريب عليه في هذا التدبير الذي دبره لكم من أنه لطيف يوصـــل إلى الأشــياء العظيمة بأضــداد أســبابها فيما يرى الناس فلا يرتاع مؤمن لكثرة المخالفين وقوة المنابذين أبداً، فإن ســـبب كون الله مع العبد هو الاتباع بالإحســان الذي عماده الرســوخ في الإيمان الذي علق الحكم به، فحيث ما وجد عليه وجد المعلق وهو النصر بأسباب جلية أو خفية {ويهديكم} في نحو هذا الأمر الذي دهمكم فأزعجكم بالثبات عند ســـماع الموعد والوعيد والثقة بمضـــمونه لأنه قادر حكيم، فهو لا يخلف الميعاد بأن يهديكم {صـــراطاً مستقيماً} أي طريقاً واسعاً واضحاً موصلاً إلى الكرامة من غير شك، وهذا من أعلام النبوة فإنه لم يزغ أحد من المخاطبين بهذه الآية وهم أهل الحديبية وكأنه والله أعلم لذلك لم يقل: ويهديهم- بالغيب على ما اقتضاه السياق لئلا

يغم غيرهم ممن يظهر صـــدقه في الإيمان ثم يزيغ، ولذا أكثر تفاصـــيل هذه السورة من أعلام النبوة، فإنه وقع الإخبار به قبل وقوعه.

ولما سـرهم سـبحانه بما بشـرهم به من كون القضـية فتحاً ومن غنائم خيبر، أتبع ذلك البشـــــارة دالاً على أنها لا مطمع لهم في حوزه ولا علاجه لولا معونته فقال: {وأخرى} أي ووعدكم مغانم كثيرة غير هذه وهي- والله أعلم- مغانم هوازن التي لم يحصـــل قبلها ما يقاربها. ولما كان في علمه سـبحانه وتعالى أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم مقرون فيها إلا من لا يمكنه في العادة أن يهزمهم ليحوي الغنائم، فكان ما في علمه تعالى لتحققه كالذي وقع وانقضى، قال تعالى: {لم تقدروا} أي بما علمتم من قراركم {عليها} ولما توقع السامع بعد علمه بعجزهم عنها الإخبار عن السبب الموصل إلى أخذها بما تقرر عند من صـــدق الوعد بها، قال مفتتحاً بحرف التوقع: {قد أحاط الله} أي المحيط بكل شــيء علماً وقدرة {بها} فكانت بمنزلة ما أدير عليه سـورة مانع من أن يغلب منها شـــيء عن حوزتكم أو يقدر غيركم أن يأخذ منها شيئاً، ولذلك وللتعميم ختم الآية بقوله: {وكان الله} أي المحيط بجميع صفات الكمال أزلاً وأبداً {على كل شيء} منها ومن غيرها {قديراً *} بالغ القدرة لأنه بكل شيء عليم.

▲ تفسير الآيات رقم [22- 25]

{وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُـــنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِــيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَــدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْــجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25)}

ولما قدم ســـبحانه أنه كف أيدي الناس عنكم أجمعين، ذكر حكمهم لو وقع قتال، فقال مقرراً لقدرته عاطفاً على نحو : فلو أراد لمكنكم من الاعتمار، مؤكداً لأجل استبعاد من يستبعد ذلك من الأعراب وغيرهم: {ولو قاتلكم} أي في هذا الوجه {الذين كفروا } أي أوقعوا هذا الوصـــف من الناس عموماً الراســخ فيه ومن دونه، وهم أهل مكة ومن لاقهم، وكانوا قد اجتمعوا وجمعوا الأحابيش ومن أطاعهم وقدموا خالد بن الوليد طليعة لهم إلى كراع الغميم، ولم يكن أسلم بعد {لولوا} أي بغاية جهدهم {الأدبار} منهزمين.

ولما كان عدم نصــرهم بعد التولية مســتبعداً أيضــاً لما لهم من كثرة الإمداد وقوة الحمية، قال معبراً بأداة البعد: {ثم} أي بعد طول الزمان وكثرة الأعوان {لا يجدون} في وقت من الأوقات {ولياً} أي يفعل معهم فعل القريب من الحياطة والشـفقة والحراسـة من عظيم ما يحصـل من رعب تلك التولية {ولا نصيراً *}.

ولما كانت هذه عادة جارية قديمة مع أولياء الله تعالى حيثما كانوا من الرسـل وأتباعهم، وأن جندنا لهم الغالبون، قال تعالى: {سـنة الله} أي سـن المحيط بهذا الخلق في هذا الزمان وما بعده كما كان محيطاً بالخلق في قديم الدهر، ولذلك قال : {التي قد خلت} أي ســـنة مؤكدة لا تتغير، وأكد

الجار لأجل أن القتال ما وقع الزمان الماضـــي إلا بعد نزول التوراة فقال : {من قبل} وأما قبل ذلك فإنما كان يحصـل الهلاك بأمر من عند الله بغير أيدي المؤمنين {ولن تجد} أيها السـامع {لسـنة الله} الذي لا يخلف قولاً لأنه محيط بجميع صـفات الكمال {تبديلاً *} أي تغيراً من مغير ما، يغيرها بما يكون بدلها.

ولما تقرر أن الكفار مغلوبون وإن قاتلوا، وكان ذلك من خوارق العادات مع كثرتهم دائماً وقلة المؤمنين حتى يأتي أمر الله موقعاً للعلم القطعي بأنه ما دبره إلا الواحد القهار القادر المختار، عطف عليه عجباً آخر وهو عدم تغير أهل مكة في هذه العمرة للقتال بعد تعاهدهم وتعاقدهم عليه مع ما لهم من قوة العزائم وشدة الشكائم، فقال عاطفاً على ما تقديره: هو الذي سن هذه السـنة العامة : {وهو الذي كف} أي وحده من غير معين له على ذلك {أيديهم} أي الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم، فإن الكل شـرع واحد {عنكم وأيديكم} أيها المؤمنون {عنهم}.

ولما كان الكفار لو بسـطوا أيديهم مع ما حتمه الله وسـنه من تولية الكفار دخلوا مكة قال : {ببطن مكة} أي كائناً كل منكم ومنهم في داخل مكة هم حالاً وأنت مآلاً، وعن القفال أنه قال : يجوز أن يراد به الحديبية لأنها من الحرم- انتهى.

وعبر بالميم دون الباء كما في آل عمران إشـارة إلى أنه فعل هنا ما اقتضـاه مدلول هذا الاسـم من الجمع والنقض والتنقية، فسـبب لهم أسـباب الاجتماع

والتنقية من الذنوب– بما أشـــارت إليه آية العمرة حالاً وآيات الفتح مآلاً، ووفى بما يدل عليه اسمها من الأهل على خلاف القياس.

ولما كان هذا ليس مسـتغرقاً لجميع الزمان الآتي، بل لا بد أن يبسـط أيدي المؤمنين بها يوم الفتح، أدخل الجار فقال تعالى: {من بعد أن أظفركم} أي أوجد فوزكم بكل ما طلبتم منهم وجعل لكم الطول والعز {عليهم} وذلك فيما رواه أصحاب. السير قالوا: ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم خراش بن أمية الخزاعي رضـــي الله عنه فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بعير له فقال له التغلب: ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له فعقروا جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثت قريش أربعين رجلاً منهم أو خمسين وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأخذوا أخذاً فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكره بالحجارة والنبل، ثم ذكروا إرساله صلى الله عليه وسلم لعثمان رضي الله عنه إلى مكة ثم إرسال قريش لسهيل بن عمرو في الصلح، وروى مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: لما اصطلحنا واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة فاضطجعت في أصـــلها فأتاني أربعة من المشـــركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في النبي صلى الله عليه وسلم فأبغضتهم، فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم واضـــطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أســـفل الوادي: يا آل المهاجرين: قتل ابن زنيم، فاخترطت سـيفي ثم شـددت على أولئك الأربعة

وهم رقود فأخذت سلاحهم، فجعلته ضغثاً في يدي، ثم قلت والذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وسلم ! لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء عمي عامر رضي الله عنه برجل من العبلات يقال له مكرز يقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس مجفف في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه، فعفا عنهم فأنزل الله تعالى {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم} الآية- انتهى. وروى مسلم والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، وفي رواية النسائي: قالوا: نأخذ محمداً- صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأخذهم النبي صلى الله عليه وسلم سلماً فاستحياهم فأنزل الله عز وجل {وهو الذي كف أيديهم عنكم} الآية.

ولما كان هذا ونحوه من عنف أهل مكة وغلظتهم وصلابتهم وشدتهم ورفق النبي صلى الله عليه وسلم ولينه لهم مما أحزن أغلب الصحابة رضي الله تعالى عنهم قال تعالى يسليهم: {وكان الله} أي المحيط بالجلال والإكرام {بما يعملون} أي الكفار- على قراءة أبي عمرو بالغيب، وأنتم- على قراءة الباقين بالخطاب في ذلك الوقت وفيما بعده كما كان قبله {بصيراً *} أي محيط العلم ببواطن ذلك كما هو محيط بظواهره فهو يجريه في هذه الدار التي ربط فيها المسببات بأسبابها على أوثق الأسباب في نصركم وغلبكم

لهم وقسركم، وستعلمون ما دبره من دخولكم مكة المشرفة آمنين لا تخافون في عمرة القضاء صلحاً ثم في الفتح بجحفل جرار قد نيطت أظفار المنايا بأسنة رماحه، وعادت كؤوس الحمام طوعاً لبيض صفاحه، فيؤمن أكثر أهل مكة وغيرهم ممن هو الآن جاهد عليكم، ويصيرون أحب الناس فيكم يقدمون أنفسهم في جهاد الكفار دونكم، فيفتح الله بكم البلاد، ويظهركم– وهو أعظم المحامين عنكم– على سائر العباد.

ولما كان ما مضى من وصفهم على وجه يشمل غيرهم من جميع الكفار، عينهم مبيناً لسبب كفهم عنهم مع استحقاقهم في ذلك الوقت للبوار والنكال والدمار فقال: {هم} أي أهل مكة ومن لافهم {الذين كفروا} أي أوغلوا في هذا الوصف بجميع بواطنهم وتمام ظواهرهم {وصدوكم} زيادة على كفرهم في عمرة الحديبية هذه {عن المسجد الحرام} أي مكة، ونفس المسجد الحرام، والكعبة، للإخلال بما أنتم فيه من شعائر الإحرام بالعمرة {والهدي} أي وصدوا ما أهديتموه إلى مكة المشرفة لتذبحوه بها وتفرقوه على الفقراء، ومنه أربعون، وفي رواية: سبعون بدنة، كان أهداها النبي صلى الله عليه وسلم {معكوفاً} أي حال كونه مجموعاً محبوساً مع رعيكم له وإصلاحه لما أهدى لأجله {أن يبلغ محله} أي الموضع الذي هو أولى المواضع لنحره، وهو الذي إذا أطلق انصرف الذهن إليه، وهو في العمرة المروة، ويجوز الذبح في الحج والعمرة في أي موضع كان من الحرم، فالموضع الذي نحر فيه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرة عند الإحصار ليس محله المطلق.

ولما كان التقدير : فلولا ما أشــار إليه من ربط المســببات بأســبابها لســلطكم عليهم فغلبتموهم على المســـــجد وأتممتم عمرتكم على ما أردتم، ثم عطف عليه أمراً أخص منه فقال: {ولولا رجال} أي مقيمون بين أظهر الكفار بمكة {مؤمنون } أي عريقون في الإيمان فكانوا لذلك أهلاً للوصـــــف بالرجولية {ونساء مؤمنات} أي كذلك حبس الكل عن الهجرة العذر لأن الكفار لكثرتهم استضـعفوهم فمنعوهم الهجرة، على أن ذلك شـامل لمن جبله الله على الخير وعلم منه الإيمان وإن كان في ذلك الوقت مشــركاً {لم تعلموهم} أي لم يحط علمكم بهم من جميع الوجوه لتميزوهم بأعيانهم عن المشـــــركين لأنهم ليس لهم قوة التمييز زمنهم بأنفســـهم وأنتم لا تعرفون أماكنهم لتعاملوهم بما هم له أهل ولا ســـــيما في حال الحرب والطعن والضـــــرب، ثم أبدل من «الرجال والنســـــاء» قوله : {أن تطؤهم } أي تؤذوهم بالقتل أو ما يقاربه من الجراح والضرب والنهب ونحوه من الوطء الذي هو الإيقاع بالحرب منه قوله صـلى الله عليه وسلم

»آخر وطـأة وطئهـا الله بوج» يكون ذلـك الأذى منكم لهم على ظن أنهم مشركون أذى الدائس لمدوس وتضغطوهم وتأخذوهم أخذاً شديداً بقهر وغلبة تصــيرون به لا تردون يد لامس ولا تقدرون على مدافعة {فتصـــيبكم} أي فيتسبب عن هذا الوطء أن يصـيبكم {منهم} أي من جهتهم وبسـببهم {معرة} أي مكروه وأذى هو كالحرب في انتشـــاره وأذاه، وإثم وخيانة بقتال دون إذن خاص، وبعدم الإمعان في البحث، وغرم وكفارة ودية وتأســـف وتعيير ممن

لا علم له، ثم علق بالوطء المسبب عنه إصابة المعرة إتماماً للمعنى قوله: {بغير علم} أي بأنهم من المؤمنين.

ولما دل السياق على أن جواب «لولا» محذوف تقديره: لسلطكم عليهم وما كف أيديكم عنهم، ولكنه علم ذلك، وعلم أنه سيؤمن ناس من المشركين فمن عليكم بأن رفع حرج إصابتهم بغير علم عنكم، وسبب لكم أسباب الفتح الذي كان يتوقع بسبب تسليطكم عليهم بأمر سهل، وكف أيديكم ولم يسلطكم عليه {ليدخل الله} أي الذي له جميع صفات الكمال {في رحمته} أي إكرامه وإنعامه {من يشاء} من المشركين بأن يعطفهم إلى الإسلام، ومن المؤمنين بأن يستنقذهم منهم على أرفق وجه، ولما كان ذلك، أنتج قوله تعالى: {لو تزيلوا} أي تفرقوا فزال أحد الفريقين عن الآخر زوالاً عظيماً بحيث لا يختلط صنف بغيره فيؤمن وطء المؤمنين له بغير علم {لعذبنا} أي بأيديكم بتسليطنا أبو بمجرد أيدنا من غير واسطة {الذين كفروا} أي أوقعوا ستر الإيمان.

ولما كان هذا عاماً لجميع من اتصف بالكفر من أهل الأرض، صرح بما دل عليه السياق فقال: {منهم} أي الفريقين وهم الصادون {عذاباً أليماً *} أي شديد الإيجاع بأيديكم أو من عندنا لنوصلكم إلى قصدكم من الاعتمار والظهر على الكفار، ففيه اعتذار وتدريب على تأدب بعضهم مع بعض، وفي الإشارة إلى بيان سر من أسرار منع الله تعالى لهم من التسليط عليهم حث للعبد على أن لا يتهم الله في قضائه فربما عسر عليه أمراً يظهر له أن السعادة كانت فيه وفي باطنه سم قاتل، فيكون منع الله له منه رحمة في الباطن وإن كان نقمة في الظاهر، فألزم التسليم مع الاجتهاد في الخير

والحرص عليه والندم على فواته وإياك والاعتراض، وفي الآية أيضاً أن الله تعالى قد يدفع عن الكافر لأجل المؤمن.

▲ تفسير الآيات رقم [26- 27]

{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27)}

ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب، بين وقته، وفيه بيان لعلته، فقال: {إذ} أي حين {جعل الذين كفروا} أي ستروا ما تراءى من الحق في مرأى عقولهم {في قلوبهم} أي قلوب أنفسهم {الحمية} أي المنع الشديد والأنفة والإباء الذي هو في شدة حره ونفوذه في أشد الأجسام كالسم والنار، ولما كان مثل هذه الحمية قد تكون موجبة للرحمة بأن تكون لله، قال مبيناً معظماً لجرمها، {حمية الجاهلية} التي مدارها مطلق المنع أي سواء كان بحق أو بباطل، فتمنع من الإذعان للحق، ومبناها التشفي على مقتضى الغضب لغير الله فتوجب تخطي حدود الشرع، ولذلك أنفوا من دخول المسلمين مكة المشرفة لزيارة البيت العتيق الذي الناس فيه سواء، ومن الإقرار بالبسملة، فأنتجت لهم هذه الحمية أن تكبروا عن كلمة التقوى وطاشوا وخفوا إلى الشرك الذي هو أبطل الباطل.

ولما كانت هذه الحمية مع الكثرة موجبة ولا بد ذل من تصوب إليه ولا سيما إن كان قليلاً، بين دلالة على أن الأمر تابع لمشـــيئته لا لجاري العادة أنه تأثر عنها ضد ما تقتضيه عادة، فقال مسبباً عن هذه الحمية: {فأنزل الله} أي الذي لا يغلبة شـيء وهو يغلب كل شـيء بسبب حميتهم {سكينته} أي الشيء اللائق إضافته إليه سبحانه من الفهم عن الله والروح الموجب لسكون القلب المؤثر للإقدام على العدو والنصـر عليه، إنزالاً كائناً {على رسـوله} صلى الله عليه وسلم الذي عظمته من عظمته، ففهم عن الله مراده في هذه القضية فجرى على أتم ما يرضيه {وعلى المؤمنين} رضـي الله تعالى عنهم العريقين في الإيمان لأنهم أتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وأنصار دينه فألزمهم قبول أمره الذي فهمه عن الله وخفي عن أكثرهم حتى فهمتموه صلى الله عليه وسلم عند نزول سورة محمد وحماهم عن همزات الشياطين، ولم يدخلهم ما دخل الكفار من الحمية ليقاتلوا غضـــباً لأنفســـهم فيتعدوا حدود الشـرع {وألزمهم} أي المؤمنين إلزام إكرام أو تشـريف، لا إلزام إهانة وتعنيف {كلمة التقوى} وهي كل قول أو فعل نـاشـــئ عن التقوى وإعلاء كلمة الإخلاص المتقدم في سـورة القتال وهي لا إله إلا الله التي هي أحق الحق، يقتضي التحقق بمدلولها من أنه لا فاعل إلا الله الثبات على كل ما أخبر به رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم من التوحيد والبسـملة والرسـالة مع تغيير الكتابة بكل منهما لأجل الكفار في ذلك المقام الدحض الذي لا يكاد يثبت فيه قدم، وأضـــافها إلى التقوى التي هي اتخاذ ســاتر يقي حر النار فجعلها وصفاً لازماً لهم غير منفك عنهم لأنها سببها الحامل عليها، ويجمع الحامل

على التقوى اعتقاد الوحدانية وهي لا إلا الله فإنها كلمة- كما قال الرازي- أولها نفي الشـــرك وآخرها تعلق بالإلهية، وهذا من أعلام النبوة، فإن أهل الحديبية الذين ألزموا هذه الكلمة ماتوا كلهم على الإسـلام {وكانوا} أي جبلة وطبعاً.

ولما كان من الكفار من يســتحقها في علم الله فيصـــير مؤمناً، عبر فأفعل التفضــــيل فقال تعالى: {أحق بها} أي كلمة التقوى من الكفار والأعرب وغيرهم من جميع الخلق، ولمثل هذا التعميم أطلق الأمر بحذف المفضـــل عليه. ولما كان الأحق بالشــيء قد لا يكون أهله من أول الأمر قال تعالى: {وأهلها} أي ولاتها والملازمون لها ملازمة العشــير بعشــيره والدائنون لها والآلفون لها. ولما كان الحكم بذلك لا يكون إلا لعالم قال عاطفاً على ما تقديره: لما علم الله من صــلاح قلوبهم وصــفائها: {وكان الله} أي المحيط بالكائنات كلها علماً وقدرة {بكل شيء} من ذلك وغيره {عليماً *} أي محيط العلم الدقيق والجلي، والآية من الاحتباك: ذكر حمية الجاهلية أولاً دليلاً على ضـدها ثانياً، وكلمة التقوى ثانياً دليلاً على ضـدها أولاً، وسره أنه ذكر مجمع الشر أولاً ترهيباً منه ومجمع الخير ثانياً ترغيباً فيه. ولما قرر سبحانه وتعالى علمه بالعواقب لإحاطة علمه ووجه أسـباب كفه أيدي الفريقين وبين ما فيه من المصـالح وما في التسـليط من المفاسـد من قتل من حكم بإيمانه من المشــركين وإصـــابة من لا يعلم من المؤمنين- وغير ذلك إلى ختم بإحاطة علمه المستلزم لشمول قدرته. أنتج ذلك قوله لمن توقع الإخبار عن

الرؤيا التي أقلقهم أمرها وكاد بعضــهم أن يزلزله ذكرها على ســبيل التأكيد: {لقد}.

ولما كان للنظر إلى الرؤيا اعتباران: أحدهما من جهة الواقع وهو غيب عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين: والآخر من جهة الإخبار وهو مع الرؤيا شهادة بالنسبة إليه سبحانه وتعالى، عبر بالصدق والحق فقال تعالى: {صـــدق الله} أي الملك الذي لا كفوء له المحيط بجميع صـــفات الكمال {رسوله} صلى الله عليه وسلم الذي هو أعز الخلائق عنده وهو غني عن الإخبار عما لا يكون أنه يكون، فكيف إذا كان المخبر رسوله {الرؤيا} التي هي من الوحي لأنه ســـبحانه يرى الواقع ويعلم مطابقتها في أنكم تدخلون المسجد الحرام آمنين يحلق بعض ويقصر آخرون، متلبساً خبره ورؤيا رسوله صلى الله عليه وسلم {بالحق} لأن مضمون الخبر إذا وقع فطبق بين الواقع وبينه، وكان الواقع يطابقه لا يخرم شيء منه عن شيء منه، والحاصل أنك إذا نسبتها للواقع طابقته فكان صدقاً، وإذا نسبت الواقع إليها طابقها فكانت حقاً.

ولما أقسم لأجل التأكيد لمن كان يتزلزل، أجابه بقوله مؤكداً بما يفهم القسم أيضـــاً إشـــارة إلى عظم الزلزال: {لتدخلن} أي بعد هذا دخولاً قد تحتم أمره {المســـجد} أي الذي يطاف فيه بالكعبة ولا يكون دخوله إلى بدخول الحرم {الحرام} أي الذي أجاره الله من امتهان الجبابرة ومنعه من كل ظالم.

ولما كان لا يجب عليه سبحانه وتعالى شــيء وإن وعد به، أشــار إلى ذلك بقوله تأديباً لهم أن يقول منهم بعد ذلك: ألم يقل أننا ندخل البيت ونحو ذلك،

ولغيرهم أن يقول: نحن ندخل: {إن شـاء الله} أي الذي له الإحاطة بصـفات الكمال، حال كونكم {آمنين} لا تخشـون إلا الله منقسـمين بحسـب التحليق والتقصير إلى قسمين {محلقين رءوسكم} ولعله أشار بصيغة التفعيل إلى أن فاعل الحق كثير، وكذا {ومقصرين} غير أن التقديم يفهم أن الأول أكثر.
ولما كان الدخول حال الأمن لا يستلزم الأمن بعده قال تعالى: {لا تخافون} أي لا يتجدد لكم خوف بعد ذلك إلى أن تدخلوا عليهم عام الفتح قاهرين لهم بالنصـــر. ولما كان من المعلوم أن ســبب هذا الإخبار إحاطة العلم، فكان التقدير، هذا أمر حق يوثق غاية الوثوق لأنه إخبار عالم الغيب والشـــهادة، صدق سبحانه فيه، وما ردكم عنه هذه الكرة على هذا الوجه إلا لأمور دبرها وشـؤون أحكمها وقدرها، قال عاطفاً على {صـدق} مسـبباً عنه أو معللاً: {فعلم} أي بسبب، أو لأنه علم من أسباب الفتح وموانعه وبنائه على الحكمة {ما لم تعلموا} أي أيها الأولياء {فجعل} أي بسـبب إحاطة علمه {من دون} أي أدنى رتبة من {ذلك} أي الدخول العظيم في هذا العام {فتحاً قريباً *} يقويكم به من فتح خيبر ووضـع الحرب بين العرب بهذا الصـلح، واختلاط بعض الناس بسـبب ذلك ببعض، الموجب لإسـلام بشـر كثير تتقوون بهم، فتكون تلك الكثرة والقوة سبب هيبة الكفار المانعة لهم من القتال، فتقل القتلى رفقاً بأهل حرم الله تعالى إكراماً لهذا النبي الكريم صـلى الله عليه وسـلم عن إغارة وإصابة من عنده من المسلمين المستضعفين من غير علم.

▲ تفسير الآية رقم [28]

{هُوَ الَّذِي أَرْسَــلَ رَسُــولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28)}

ولما أخبر بهذه الأمور الجليلة الدقيقة المبنية على إحاطة العلم، عللها سبحانه وبين الصدق فيها بقوله تعالى: {هو} أي وحده {الذي أرسل رسوله} أي الذي لا رسول أحق منه بإضافته إليه– صلى الله عليه وسلم {بالهدى} الكامل الذي يقتضــي أن يستقيم به أكثر الناس، ولو أنه أخبر بشــيء يكون فيه أدنى مقال لم يكن الإرســـال بالهدى {ودين الحق} أي الأمر الثابت الكامل في الثبات الذي يطابقه الواقع {ليظهره} أي دينه {على الدين كله} دين أهل مكة والعرب عباد الأصنام، الذي يقتضــي إظهاره عليه دخوله إليه آمناً، وإظهاره على من ســـواهم من أهل الأديان الباطلة بأيدي صـــحابته الأبرار والتابعين لهم بإحســان إظهاراً يتكامل بنزول عيســى عليه الصــلاة والسلام مع الرفق بالخلق والرحمة لهم، فلا يقتل إلا من لا صلاح له أصلاً، وعلى قدر الجبروت يحصـــل القهر، فلأجل ذلك هو يدبر أمره بمثل هذه الأمور التي توجب نصـــره وتعلي قدره مع الرفق بقومه وجميل الصـــنع لأتباعه، فلا بد أن تروا من فتوح أكثر البلاد وقهر الملوك الشداد ما تعرفون به قدرة الله سبحانه وتعالى.

ولما كان في سياق إحاطة العلم، وكان التقدير: شهد ربه سبحانه بتصديقه في كل ما قاله بإظهار المعجزات على يده، بنى عليه قوله تعالى {وكفى بالله} أي الذي له الإحاطة بجميع صــفات الكمال {شــهيداً *} أي ذا رؤية وخبرة بطية كل شـــيء ودخلته لما له الغنى في أمره، ولا شـــهيد في الحقيقة

إلا هو سبحانه لأنه لا إحاطة وخبرة ورقبة إلا له سبحانه، وهو يشهد بكل ما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم في هذه الصورة خصوصاً وفي غيرها عموماً.

▲ تفسير الآية رقم [29]

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29)}

ولما ختم سبحانه بإحاطة العلم بالخفايا والظواهر في الإخبار بالرسالة، عينها في قوله جواباً لمن يقول: من الرسول المنوه باسمه: {محمد رسول الله} أي الملك الذي لا كفوء له، فهو الرسول الذي لا رسول يساويه لأنه رسول إلى جميع الخلق ممن أدرك زمانه بالفعل في الدنيا ومن تقدمه بالقوة فيها وبالفعل في الآخرة يوم يكون الكل تحت لوائه، وقد أخذ على الأنبياء كلهم الميثاق بأن يؤمنوا به إن أدركوه، وأخذ ذلك الأنبياء على أممهم، لا يكتب الرحمة التي وسعت كل شيء إلا لمن وقع العلم بالمحيط بإنه يؤمن به، فما عمل عامل عملاً صالحاً إلا كان له مثل أجره، تقدم ذلك العامل أو تأخر، كان من أهل السماء أو من أهل الأرض، وهذا أمر لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، وأشار بذلك إلى هذا الاسم بخصوصه في سورة محمد إلى أنه صلى الله عليه وسلم هو الخاتم- بما أشارت إليه الميم التي مخرجها

ختام المخارج، وهي محيطة بما أشارة إليه صورته، وكررت في الاسم بعده غاية التأكيد، وهو ثلاث- كما أشار إليه اسمه: أحمد- إلى أنه مع كونه خاتماً فهو فاتح بما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم «كنت أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً» واختصت به سورة الصف ليعادل ذلك بتصريح المبشر به عليه الصلاة والسلام بالبعدية في قوله {برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: 6] وأشارت الميم أوله أيضاً إلى بعثه عند الأربعين، وما بقي من حروفه وهي حمد يفيد له كمال الحمد بالفعل في السنة الثانية والخمسين من عمره وهي الثانية عشرة من نبوته ببيعة الأنصار رضي الله عنهم، وقد أشارت هذه السورة إلى كلمة الإخلاص تلويحاً مما ذكرت من كلمة الرسالة تصريحاً وبطنت سطوة الإلهية وظهرت الرحمة المحمدية- كما أشارت القتال إلى الرسالة تلويحاً وصرحت بسطوة الإلهية بكلمة الإخلاص والناشئة عن القتال تصريحاً، وقد تقدم في القتال نبذة من أسرار الكلمتين. ولما ذكر الرسول ذكر المرسل إليهم فقال تعالى: {والذين معه} أي بمعية الصحبة من أصحابه وحسن التبعية من التابعين لهم بإحسان: ولما كان شرف القوم شرفاً لرئيسهم، مدحهم بما يشمله فقال تعالى: {أشداء على الكفار} فهم لا تأخذهم بهم رأفة بل هم معهم كالأسد على فريسته، لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم {رحماء بينهم} كالوالد مع الولد، لأن الله تعالى أمرهم باللين للمؤمنين، ولا مؤمن في زمانهم إلا من كان من أهل دينهم، فهو يحبهم ويحبونه بشهادة آية المائدة.

ولما كان هذا بخلاف ما وصـفت به الأمم الماضـية من أنهم ما اختلفوا إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم، فكان عجباً، بين الحامل عليه بقوله: {تراهم} أي أيها الناظر لهم {ركعاً سجداً} أي دائمي الخضوع فأكثر أوقاتهم صلاة قد غلبت صفة الملائكة على صفاتهم الحيوانية، فكانت الصلاة آمرة لهم بالخير مصفية عن كل نقص وضير.

ولما كانت الصـلاة مما يدخله الرياء، بين إخلاصـهم بقوله: {يبتغون} أي يطلبون بذلك وغيره من جميع أحوالهم بغاية جهدهم وتغليباً لعقولهم على شـهواتهم وحظوظهم {فضـلاً} أي زيادة في الخير {من الله} أي الذي له الإحاطة بصـفات الكمال والجمال الذي أعطاهم ملكة الغلظة على الكفار بما وهبهم من جلاله والرقة على أوليائه بما أعطاهم من رحمته التي هيأهم بها للإحسـان إلى عياله فنزعوا الهوى من صـدورهم فصـاروا يرونه وحده سـيدهم المحسـن إليهم لا يرون سـيداً غيره، ولا محسـن سـواه. ولما ذكر عبادتهم وطلبهم الزيادة منها ومن غيرها من فضـل الله الذي لا يوصـل إلى عبادته إلا بمعونته، أتبعه المطلوب الأعلى فقال: {ورضواناً} أي رضاء منه عظيماً.

ولما ذكر كثرة عبادتهم إخلاصـهم فيها اهتماماً به لأنه لا يقبل عملاً بدونه، دل على كثرتها بقوله: {سيماهم} أي علامتهم التي لا تفارقهم {في وجوههم} ثم بين العلامة بقوله: {من أثر السـجود} فهي نور يوم القيامة– رواه الطبراني عن أبي بن كعب رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم– هذا مع ما لهم من مثل ذلك في الدنيا من أثر الخشوع والهيبة بحيث إنه إذا رئي

أحدهم أورث لرائيه ذكر الله، وإذا قرأ أورثت قراءته حزناً وخشـــوعاً وإخباتاً وخضـــوعاً، وإن كان رث الحال رديء الهيئة، ولا يظن أن من الســـيما ما يصـنعه بعض المرائين من هيئة أثر سـجود في جبهته، فإذا ذلك من سـيما الخوارج، وفي نهاية ابن الأثير في تفســـير الثفن: ومنه حديث أبي الدرداء رضـي الله عنه: رأى رجلاً بين عينيه مثل ثفنة العنز، فقال: لو لم يكن هذا لكان خيراً- يعني كان على جبهته أثر السجود، وإنما كرهها خوفاً من الرياء بها، وقد روى صـاحب الفردوس عن أنس رضـي الله عنه عن النبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني لأبغض الرجل وأكرهه إذا رأيت بين عينيه أثر السجود».

ولما أتم وصــفهم بهذا الأمر الذي لا يقدر عليه أحد إلا من صــفاه الله من جميع حظوظه وشـهواته، أشـار إلى علوه فقال: {ذلك} أي هذا الوصـف العالي جداً البديع المثال البعيد المنال {مثلهم في التوراة} فإنه قال فيها: أتانا ربنا من سـيبنا وشـرق لنا من جبل سـاعير، وظهر لنا من جبل فاران، معه ربوات الأطهار على يمينه، أعطاهم وحببهم إلى الشعوب وبارك على جميع أطهاره وهم يتبعون آثارك. فظهوره من فاران صـريح في نبوة محمد صـلى الله عليه وســـلم فإنه لم يأت منها- وهي جبال مكة باتفاقهم- بعد نزول التوراة بالنبوة غيره صـلى الله عليه وسـلم، وربوات الأطهار إشـارة إلى كثرة أمتـه، وأنهم في الطهـارة كـالملائكـة، وأيـد ذلـك جعلهم من أهـل اليمين، ووصـفهم بالتحبيب إلى الشـعوب، فكل ذلك دال على ما وصـفوا به منا من شـــهادة الوجود- هذا مع ما وجدته في التوراة بعد تبديلهم لما بدلوا منها

وإخفائهم كما قال الله تعالى لكثير، وروى أصحاب فتوح البلاد في فتح بيت المقدس عن كعب الأحبار أن سبب إسلامه أن أباه كان أخبره أنه ذخر عنه ورقتين جعلهما في كوة وطين عليهما، وأمره أن يعمل بهما بعد موته، قال: فلما مات فتحت عنهما فإذا فيهما: محمد رسول الله صلى الله خاتم النبيين لا نبي بعده مولده بمكة ومهاجرة بطيبة ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ويصفح، وإن أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل شيء وعلى كل حال، ويذلل ألسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيهم على كل من ناواه، يغسلون فروجهم بالماء، ويؤثرون على أواسطهم، وأناجيلهم في صدورهم، يأكلون قربانهم في بطونهم ويؤجرون عليها، تراحمهم بينهم تراحم بين الأم والأب، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم، هم السابقون المقربون والشافعون والمشفع لهم.

وأصله في الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وفي الدارمي عن كعب هذا، ولأصحاب الفتوح عن سمرة بن حوشب عن كعب قال: قلت لعمر رضي الله عنه وهو بالشام عند انصرافه: يا أمير المؤمنين! إنه مكتوب في كتاب الله «إن هذه البلاد التي كان فيها بنو إسرائيل وكانوا أهلها مفتوحة على رجل من الصالحين، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين، سره مثل علانيته، وعلانيته مثل سره، وقوله لا يخالف فعله، والقريب والبعيد عنده في الحق سواء، أتباعه رهبان بالليل أسد بالنهار، متراحمون متباذلون» فقال عمر: ثكلتك أمك أحق ما تقول؟ قلت: أي والذي أنزل التوراة على

موســى والذي يسـمع ما نقول! إنه لحق، فقال عمر: فالحمد لله الذي أعزنا وشرفنا وأكرمنا ورحمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم ورحمته التي وسعت كل شــيء- هذا على أن المراد بالمثل الوصـف، ويمكن أن يكون على حقيقته، ويكون الذي في التوراة ما ترجمته «هم على أعدائهم كقرن الحديد وفيما بينهم في النفع والتواصــل كالماء والصــعيد، ولربهم كخامة الزرع مع الريح والصـديق النصـيح، وفي الإقبال على الآخرة كالمسـافر الشـاحب والباكي الناحب» فعبر عنه في كتابنا بما ذكر.

ولما ذكر مثلهم في الكتاب الأول، أتبعه الكتاب الثاني الذي هو ناسـخ ليعلم أنه قد أخذ على كل ناسـخ لشـريعته أن يصـفهم لأمته ليتبعوهم إذا دعوهم فقال: {ومثلهم في الإنجيل} أي الذي نسخ الله به بعض أحكام التوراة {كزرع} أي مثل زرع {أخرج شـطأه} أي فراخه وورقه وما خرج حول أصـوله، فكان ذلك كله مثله.

ولما ذكر هذا الإخراج سـبب عنه قوله {فآزره} أي فأحاط به الشـطأ، فقواه وطهره من غير نبتة نبتت عنه فتضـعفه وسـاواه وحاذاه وعاونه، ويظهر أن قراءة الهمزة بالمد على المفاعلة أبلغ من قراءة ابن عامر بالقصــــر، لأن الفعل إذا كان بين اثنين يتجاذبانه كان الاجتهاد فيه أكثر، ثم ســـبب عن المؤازرة قوله: {فاستغلظ} أي فطلب المذكور من الزرع والشطأ الغلظ وأوجده فتسـبب عن ذلك اعتداله {فاسـتوى} أي وجد فيه القيام العدل وجوداً عظيماً كأنه كان بغاية الاجتهاد والمعالجة {على سوقه} أي قصبه، جمع ساق، وهو ما قام عليه الشـــيء، حال كون هذا المذكور من الزرع والشـــطأ {يعجب

الزراع} ويجوز كونه اســـتئنافاً للتعجب منه والمبالغة في مدحه وإظهار الســـرور في أمره، وإذا أعجبهم وهم في غاية العناية بأمره والتفقد لحاله والملابســـة له ومعرفة معانيه كان لغيرهم أشـــد إعجاباً، ومثل لأنهم يكونون قليلين ثم يكثرون مع البهجة في عين الناظر لما لهم من الرونق الذي منشؤه نور الإيمان وثبات الطمأنينة والإيقان وشـــدة الموافقة من بعضـــهم لبعض، ونفي المخالف لهم وإبعاده، وقد تقدم في هذا الكتاب في آخر المائدة أمثال ضربت في الإنجيل بالزرع أقربها إلى هذا مثل حبة الخردل فراجعه.

ولما أنهى سبحانه مثلهم، ذكر الثمرة في جعلهم كذلك فقال: {ليغيظ} معلقاً له بما يؤخذ من معنى الكلام وهو جعلهم كذلك لأجل أن يغيظ {بهم} أي غيظاً شـــديداً بالغ القوة والإحكام {الكفار} وذلك أنهم لما كانوا أول الأمر قليلاً، كان الكفار طامعين في أن لا يتم لهم أمر، فكلما ازدادوا كثرة مع تمادي الزمان زاد غيظ الكفار منهم، فكيف إذا رأوا مع الزيادة والقوة منهم حســـناً ونضـــارة ورونقاً وبهجة، فهو في الغيظ مما لو كانوا في أول الأمر كثيراً لأنه كان يكون دفعه ويقصـــر زمنه، فمن أبغض صـــحابياً خيف عليه الكفر لأنهم أول مراد بالآية، وغيرهم بالقصـــد الثاني وبالتبع، ومن أبغضـــهم كلهم كان كافراً، وإذا حملناه على غيرهم كان دليلاً على أن كل من خالف الإجماع كفر – قاله القشيري.

ولما تم مثلهم وعلة جعلهم كذلك، بشـــرهم فقال في موضـــع وعدهم لتعليق الوعد بالوصف على عادة القرآن ترغيباً في التمسك به وترهيباً من مجانبته: {وعد الله} أي الملك الأعظم {الذين آمنوا} ولما كان الكلام في الذين معه

صـــلى الله عليه وســـلم، وكانت المعية ظاهرة في الاتحاد في الدين لم تكن شـاملة للمنافقين، فلم يكن الاهتمام بالتقييد بمنهم هنا كالاهتمام به في سـورة النور، فأخره وقدم العمل لأن العناية به هنا أكثر، لأنه من سيماهم المذكورة فقال: {وعملوا} أي تصديقاً لدعواهم الكون معه في الدين {الصالحات} ولما كان قوله «معه» يعم كما مضـى من بعد الصحابة رضـي الله تعالى عنهم، وكان الخلل فيمن بعدهم كثيراً، قيد بقوله: {منهم} أي من الذين معه صـلى الله عليه وســـلم ســـواء كانوا من أصـــل الزرع أو فراخه التي أخرجها وهم التابعون لهم بإحسان.

ولما كان الإنسان وإن اجتهد مقصراً عن بلوغ ما يحق له من العبادة، أشار إلى ذلك بقوله: {مغفرة} أي لما يقع منهم من الهفوات أو الذنوب والسـيئات {وأجراً عظيماً *} بعد ذلك الستر، وقد جمعت هذه الآية الخاتمة لهذه السورة جميع حروف المعجم بشـــارة تلويحية مع ما فيها من البشـــائر التصـــريحية باجتماع أمرهم وعلو نصـرهم، وذلك أنه لما كانت هذه العمرة قد حصـل لهم فيها كسر لرجوعهم قبل وصولهم إلى قصدهم من الدخول إلى مكة المشرفة والطواف بالبيت العتيق، ولم يكن ذلك بســـبب خلل أتى من قبلهم كما كان في غزوة أحد على ما مضى من بيانه في آل عمران التي هي سورة التوحيد الذي كلمته كلمة التقوى عند الآية الثانية لهذه، بشـرهم سـبحانه بما في هذه السـورة من البشـائر الظاهرة تصـريحاً وبما في هذه الآية الخاتمة من جمعها لجميع حروف المعجم تلويحاً إلى أن أمرهم لا بد من تمامه، واشـتداد سـلكه وانبرامه، واتســـاق شـــأنه وانتظامه، وخفوق ألويته وأعلامه، وافتتحها بميم

«محمد» وهي مضمومة، وختمها بميم «عظيماً» المنصوبة إشارة بما للميم من الختام بمخرجها إلى أن تمام الأمر قد دنا جداً إبانه، وحضـــر زمانه، وبما في أولها من الضـم إلى رفعة دائمة في حمد كثير، وبما في آخرها من النصب إلى تمام الفتح وانتشاره، وقربه واشتهاره، على وجه عظيم، وشرف في علو جسيم، وأومأ تدويرها إلى أنه أمر لا انتهاء له، بل كلما ختم ابتدأ، وقد ظهر من هذا وما في صـــريح الآية من القوة المعزة للمؤمنين المذلة للكافرين رد مقطعها على مطلعها بالفتح للنبي صـــلى الله عليه وســـلم والتسكين العظيم لأصحابه رضي الله عنهم، والرحمة والمغفرة والفوز العظيم لجميع أتباعه وأنصاره وأشياعه رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وجعلنا بمنه وكرمه منهم، وهذا آخر القســـم الأول من القرآن، وهو المطول، وقد ختم- كما ترى- بسورتين هما في الحقيقة للنبي صلى الله عليه وسلم، وحاصلهما الفتح له بالسـيف والنصـــر على من قاتله ظاهراً كما ختم الثاني المفصـــل بسورتين هما نصرة له صلى الله عليه وسلم بالحال على من قصده بالضر باطناً- والله الهادي للصـواب وإليه المرجع والمآب وصـلى الله على سـيدنا محمد وآله وصحبه.

▲ سورة الحجرات

▲ تفسير الآيات رقم [1- 3]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا

لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)}

ولما نوه سبحانه في القتال بذكر النبي صلى الله عليه وسلم في ابتدائها باسمه الشريق وسمى السورة به، وملأ سورة محمد بتعظيمه، وختمها باسمه، ومدح أتباعه لأجله، افتتح هذه باشتراط الأدب معه في القول والفعل للعد من حزبه والفوز بقربه، ومدار ذلك معالي الأخلاق، وهي إما مع الله سبحانه وتعالى أو مع رسوله صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما وإن كان كل قسم لا يخلو عن لحظة الآخر، وغيرهما إما أن يكون داخلاً مع المؤمنين في رتبة الطاعة أو خارجاً عنها، وهو الفاسق، والداخل في طاعة المؤمنين السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم، فهذه خمسة أقسام، فصل النداء بسببها خمس مرات، كل مرة لقسم منها، وافتتح بالله لأن الأدب معه هو الأصل الجامع للكل والأس الذي لا يبنى إلا عليه، فقال منادياً للمتسمين بأول أسنان القلوب تنبيهاً على أن سبب نزولها من أفعالهم لا من أفعال أهل الكمال، فهو هفوة تقال، وما كان ينبغي أن يقال، وليشمل الخطاب المعهود للأدنى– ولو مع النفاق– من فوقه من باب الأولى : {يا أيها الذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان {لا تقدموا} وحذف المفعول ليعم كل ما يصح تقديمه فيذهب الوهم كل مذهب، ويجوز أن يكون حذفه من قصد إليه أصلاً، بل يكون النهي موجهاً إلى نفس التقدمة أي لا تتلبسوا بهذا الفعل، ويجوز أن يكون من قدم– بالتشديد بمعنى أقدم وتقدم أي شجع نفسه على

التقدم، ومنه مقدمة الجيش، وهم متقدموه، وأشـــار إلى تهجين ما نهوا عنه وتصوير شناعته، وإلى أنهم في القبضة ترهيباً لهم فقال: {بين يدي الله} أي الملك الذي لا يطاق انتقامه.

ولما كان السـياق للنهي عن التقديم والتقدم، وكان مقتضـى الرسـالة إنفاذ الأوامر والنواهي عن الملك من غير أن يكون من المرســل إليهم اعتراض أصلاً، وبذلك استحق أن لا يتكلم بحضرته في مهم ولا يفعل مهم إلا بإذنه، لأن العبيد لما لهم من النقص لا استقلال لهم بشـيء أصلاً، عبر بالرسول دون النبي بعد أن ذكر اسمه تعالى الأعظم زيادة في تصوير التعظيم فقال: {ورســوله} أي الذي عظمته ظاهرة جداً، ولذلك قرن اســمه باسـمه وذكره بذكره، فهو تمهيد لما يأتي من تعظيمه، فالتعبير بذلك إشـارة إلى أن النفس إذا خليت وفطرتها الأولى، امتلأت بمجرد رؤيته هيبة منه، وإجلالاً له، فلا يفعل أحد غير ذلك إلا بتشجيع منه لنفسه وتكليفها ضد ما تدعو إليه الفطرة الأولى القويمة، فالمعنى: لا تكونوا متقدمين في شيء من الأشياء والله يقول الحق ويهدي السبيل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ عنه لا ينطق عن الهوى، فعلى الغير الاقتداء والاتباع، لا الابتداء والابتداع، ســواء كان النبي صلى الله عليه وسلم غائباً أو حاضراً بموت أو غيره.

فإن آثاره كعينه، فمن بذل الجهد فيها هدي للأصـــلح، {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} [العنكبوت: 69].

ولما استعار للدلالة على القدرة التعبير باليدين وصور البينة ترهيباً من انتقام القادر إذا خولف، صـــرح بذلك بقوله تعالى: {واتقوا الله} أي اجعلوا بينكم

وبين غضـــب الملك الأعظم وقاية، فإن التقوى مانعة من أن تضـــعيوا حقه وتخالفوا أمره وتقدموا على شيء لم تعلموا رضاه فيه.

ولما كان ســبحانه مع كل بعلمه، وأقرب إليه من نفســه، فكان مع ذلك غيباً محضــاً لكونه محتجباً برداء الكبر وإزار العظمة والقهر، وكان الإنســان لما غاب عنه نساء، ذكره مرهباً بقوله مستأنفاً أو معللاً مؤكداً تنبيهاً على ما في ذلك من الغرابة والعظمة التي يحق للإنســـان مجاهدة نفســـه لأجلها في الإيمان به والمواظبة على الاستمرار على استحضاره، لأن أفعال العاصي أفعال من ينكره: {إن الله} أي الذي له الإحاطة بصــفات الكمال. ولما كان ما يتقدم فيه إما قولاً أو فعلاً قال: {سميع} أي لأقوالكم أن تقولوها {عليم *} أي بأعمالكم قبل أن تعملوها.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما وصــف ســبحانه عباده المصــطفين صــحابه نبيه والمخصــوصــين بفضــيلة مشــاهدته وكريم عشــرته فقال {محمد رســول الله والذين معه أشــداء على الكفار رحماء بينهم} [الفتح: 29] «إلى آخره»، فأثنى ســبحانه عليهم وذكر وصــفه تعالى بذلك في التوراة والإنجيل، وهذه خصــيصــة انفردوا بمزية تكريمها وجرت على واضــح قوله تعالى {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف} [آل عمران: 110] إلى آخره، وشــهدت لهم بعظيم المنزلة لديه، ناســب هذا طلبهم بتوفية العشــب الإيمانية قولاً وعملاً ظاهراً وباطناً على أوضــح عمل وأخلص نية، وتنزيههم عما وقع من قبلهم في مخاطبات أنبيائهم كقول بني إسرائيل {يا موسى ادع لنا ربك} [الأعراف: 134] إلى ما شهد من هذا الضرب بسوء حالهم فقال تعالى: {يا

أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسـوله} الآية و{يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصـــواتكم فوق صـــوت النبي ولا تجهروا له بالقول}- إلى قوله- {والله غفور رحيم} فطلبوا بآداب تناســب عليّ إيمانهم وإن اغتفر بعضــه لغيرهم من ليس في درجتهم وقد قيل حسـنات الأبرار سـيئات المقربين فكأن قد قيل لهم : لا تغفلوا ما منح لكم في التوراة والإنجيل، فإنها درجة لم ينلها غيركم من الأمم فقابلوها بتنزيه أعمالكم عن أن يتوهم في ظواهرها أنها صدرت عن عدم اكتراث في الخطاب، أو سوء قصد في الجواب، وطابقوا بين ظواهركم وبواطنكم وليكن علنكم منبئاً بسليم سرائركم {إن الذين يغضون أصـــواتهم عند رســول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى} ثم عرفوا بسوء حال من عدل به عن هذه الصـفة فقال تعالى {إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} ثم أمروا بالتثبت عند نزغة الشـــيطان، أو تقول ذي بهتان {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاســق بنبأ} الآية، ثم أمرهم بصــلاح ذات بينهم والتعاون في ذلك بقتال الباغين العتاة وتحسـين العشـرة والتزام ما يثمر الحب والتودد الإيماني والتواضــع، وأن الخير كله في التقوى {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} وكل ذلك محذر لعلي صفاتهم التي وصفوا بها في خاتمة سورة محمد.

ولما ثبت إعظام الرسول صلى الله عليه وسلم بأن لا يفتات عليه بأن يتأهب ما هو وظيفته من التقدم في الأمور وقطع المهمات، فلا يكلم إلا جواباً أو ســؤالاً في أمر ضـــروري لا يمكن تأخيره، وكان من يكلمه لذلك ربما رفع صــوته رفعاً الأولى به غيره مما هو دونه، وكان من جملة أحواله أن يوحى

إليه بالأمور العظيمة، وكان رفع الصوت إذ ذاك من المشوشات في حسن التلقي للوحي مع ما فيه من قلة الاحترام والإخلاء بالإجلال والإعظام، قال ذاكراً لثاني الأقسام، وهو ما كان النظر فيه إلى مقامه صلى الله عليه وسلم بالقصد الأول، مستنتجاً مما مضى من وصفه بالرسالة الدالة على النبوة، آمراً بحفظ حرمته ومراعاة الأدب في خدمته وصـــحبته بتبجيله وتفخيمه، وإعزازه وتعظيمه، مكرراً لندائهم بما ألزموا أنفســـهم به من طاعته بتصـــديقه واستدعاء لتجديد الاستنصار وتطرية الندب إلى الإنصات وإشارة إلى أن المنادى له أمر يستحق أن يفرد بالنداء ويستقل بالتوصية: {يا أيها الذين آمنوا} مكرراً للتعبير بالأدنى من أســـنان القلوب للتنبيه على أن فاعل مثل هذه المنهيات والمحتاج فيها إلى التنبيه بالنهي قد فعل من هذا حاله {لا ترفعوا أصواتكم} أي في شيء من الأشياء {فوق صوت النبي} أي الذي يتلقى عن الله، وتلقيه عنه متوقع في كل وقت، وهذا يدل على أن أذى العلماء الذين هيأهم الله لتلقي فهم دينه عند شـــديد جداً، فإن تكدير أوقاتهم يمنعهم عن كثير من ذلك.

ولما بين ما في ذلك لأجل النبوة، بين ما ينبغي في نفســـه من المزية فقال: {ولا تجهروا بالقول} أي إذا كلمتموه سواء كان ذلك بمثل صوته أو أخفض من صـــوته، فإن ذلك غير مناســـب لما يهاب به العظماء، ويوقر الكبراء. ولما شـــمل هذا كل جهر مخصـــوص، وهو ما يكون مســـقطاً للمزية، قال: {كجهر بعضكم لبعض} أي فإنكم إن لم تفعلوا ذلك لم يظهر فرق بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين غيره. ولما نهى عن ذلك، بين ضرره فقال مبيناً

أن من الأعمال ما يحبط ولا يدرى أنه محبط، ليكون العامل كالماشـــي في طريق خطر لا يزال يتوقى خطره ويديم حذره: {أن} أي النهي لأجل خشـية أن {تحبط} أي تفسد فتسـقط {أعمالكم} أي التي هي الأعمال بالحقيقة وهي الحســـنات كلها {وأنتم لا تشـــعرون} أي بأنها حبطت، فإن ذلك إذا اجترأ الإنســـان عليه اســـتخف به وإذا اســـتخف به واظب عليه، وإذا واظب عليه أوشك أن يستخف بالمخاطب فيكفر وهو لا يشعر.

ولما تقدم سبحانه في الإخلال بشيء من حرمته صلى الله عليه وسلم ونهى عن رفع الصـــوت والجهر الموصـــوف، أنتج المخافة عنده على ســـبيل الإجلال، فبين ما لمن حافظ على ذلك الأدب العظيم، فقال مؤكداً لأن في المنافقين وغيرهم من يكذب بذلك، وتنبيهاً. على أنه لمحبة الله له ورضـاه به أهل لأن يؤكد أمره ويواظب على فعله: {إن الذين يغضـون} أي يخفضـون ويلينون لما وقع عليهم من السـكينة من هيبة حضـرته، قال الطبري: وأصـل الغض الكف في لين {أصواتهم} تخشعاً وتخضعاً ورعاية للأدب وتوقيراً.

ولما كان المبلغ ربما أنساه اللغط ورفع الأصوات ما كان يريد أن يبلغه «إنه بينت لي ليلة القدر فخرجت لأخبركم بها فتلاحى رجلان فأنسيتها وعسى أن يكون خيراً لكم» قال: {عند رسـول الله} أي الذي من شـأنه أن يعلو كلامه على كل كلام، لأنه مبلغ من الملك الأعظم وعبر بعند التي للظاهر إشـــارة إلى أن أهل حضرة الخصوصية لا يقع منهم إلا أكمل الأدب.

ولما ابتدأ ذكرهم مؤكداً تنبيهاً على عظيم ما ندبوا إليه، زاده إعظاماً بالإشارة إليهم بأداة البعد فقال: {أولئك} أي العالو الرتب لما لهم من علو الهمم

بالخضوع لمن أرسله مولاهم الذي لا إحسان عندهم إلا منه {الذين امتحن الله} أي فعل المحيط بجميع صفات الكمال فعل المختبر بالمخالطة البليغة بالشدائد على وجه يؤدي إلى المنحة باللين والخلوص من كل درن، والانشراح والاتساع {قلوبهم} فأخلصها {للتقوى} أي الخوف المؤدي إلى استعداد صاحبه بإقامة ما يقيه من كل مكروه، والامتحان: اختبار بليغ يؤدي إلى خبر، فالمعنى أنه طهر قلوبهم ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب والفضة بالإذابة للتنقية والتخليص من كل غش لأجل إظهار ما بطن فيها من التقوى ليصير معلوماً للخلق في عالم الشهادة كما كان معلوماً له سبحانه في عالم الغيب، وهو خروجهم عن العادات البشرية ومفارقتهم لما توجبه الطبيعة، وهو حقيقة التوحيد، فإن التقوى لا تظهر إلا عند المحن والشدائد بالتكليف وغيرها، ولا تثبت إلا بملازمة الطاعة في المنشط والمكره والخروج عن مثل ذلك.

ولما كان الإنسان وإن اجتهد في الإحسان محلاً للنقصان، استأنف الإخبار عن جزائهم بقوله: معرباً له من فاء السبب، إشارة إلى أن ذلك بمحض إحسانه: {لهم مغفرة} أي لهفواتهم وزلاتهم {وأجر عظيم *} أي جزاء لا يمكن وصفه على محاسن ما فعلوه.

▲ تفسير الآيات رقم [4- 7]

{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ

نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)}

ولما نهى سبحانه عن الإخلال بالأدب، وأمر بالمحافظة على التعظيم، وذكر وصف المطيع، أتبع ذلك على سبيل النتيجة وصف من أخل به، فقال مؤكداً لأجل أن حالهم كان حال من يدع عقلاً تاماً: {إن الذين ينادونك} أي يجددون نداءك من غير توبة والحال أن نداءهم إياك كائن {من وراء} إثبات هذا الجار يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان داخلها، ولو سقط لم يفد ذلك، بل كان يفيد أن نسبة الأماكن التي وراءها الحجرات كلها بالنسبة إليه وإليهم على حد سواء، وذلك بأن يكون الكل خارجها، والوراء: الجهة التي تواريك وتواريها من خلف أو قدام.

ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم من العظمة في نفسه وفي تبليغ رسالات الله في هيئتها بمكان من العظمة بحيث لا يخفى على أحد. فليس لأحد أن يفتات فيها عليه ولا أن يعجله عن شيء، وكان نداؤه لذلك من وراء حجرته واحدة كندائه من وراء كل حجرة جمع فقال: {الحجرات} ولم يضفها إليه إجلالاً له، وليشمل كوني في غيرها أيضاً، والمعنى: مبتدئين النداء من جهة تكون الحجرات فيها بينك وبينهم فتكون موازية لك منهم ولهم منك، وهي جمع حجرة، وهي ما حوط من قطع الأرض بحائط يمنع ممن يكون خارجه من أذى من يكون داخله بقول أو فعل، فإنه يكون فيما يختص به من الاجتماع بنسائه أو إصلاح شيء من حاله، لا يتهيأ له بحضور الناس

فيما يتقاضاه المروءة، وأسند الفعل إلى الجمع وإن كان المنادي بعضهم للرضى به أو السكوت عن النهي.

ولما كان الساكت قد لا يكون راضياً قال: {أكثرهم} أي المنادي والراضي دون الساكت لعذر {لا يعلقون *} لأنهم لم يصبروا، بل فعلوا معه صلى الله عليه وسلم كما يفعل بعضهم مع من يماثله، والعقل يمنع من مثل ذلك لمن اتصف بالرئاسة فكيف إذا كانت رئاسة النبوة والرسالة عن الملك الجبار الواحد القهار.

ولما ذمهم بسوء عملهم، أرشدهم إلى ما يمدحون به من حسنه فقال: {ولو أنهم} أي المنادي والراضي {صبروا} أي حبسوا أنفسهم ومنعوها عن مناداتهم، والصبر حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها وهو حبس فيه شدة، وصبر عن كذا- محذوف الفعل لكثرة دوره، أي نفسه {حتى تخرج} من تلقاء نفسك عند فراغ ما أنت فيه مما يهمك من واردات الحق ومصالح الخلق.

ولما كان الخروج قد يكون إلى غيرهم من المصالح، فلا يسوغ في الأدب أن يقطع ذاك عليه قال: {إليهم} أي ليس لهم أن يكلموك حتى تفرغ لهم فتقصدهم فإنك لا تفعل شيئاً في غير حينه بمقتضى أمر الرسالة {لكان} أي الصبر.

ولما كان العرب أهل معال فهم بحيث لا يرضون إلا الأحسن فقال: {خيراً لهم} أي من استعجالهم في إيقاظك وقت الهاجرة وما لو قرعوا الباب بالأظافير كما كان يفعل غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وهذا على تقدير أن يكون ما ظنوا من أن فيه خيراً فكانوا يعقلون، ففي التعبير بذلك

مع الإنصاف بل الإغضاء والإحسان هز لهم إلى المعالي وإرشاد إلى ما يتفاخرون به من المحاسن، قال الرازي: قال أبو عثمان: الأدب عند الأكابر يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى والخير في الأولى والعقبى- انتهى. وأخيرية صبر في الدين معروفة، وأما في الدنيا فإنهم لو تأدبوا لربهم زادهم النبي صلى الله عليه وسلم في الفضل فأعتق جميع سبيهم وزادهم، والآية في الاحتباك: حذف التعليل بعدم الصبر أولاً لما دل عليه ثانياً، والعقل ثانياً لما دل عليه من ذكره أولاً.

ولما ذكر التقدير تأديباً لنا وتدريباً على الصفح عن الجاهل وعذره وتعليمه: ولكنهم لم يصبروا وأساؤوا الأدب فكان ذلك شراً لهم والله عليم بما فعلوا حليم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة لإساءتهم الأدب على رسوله صلى الله عليه وسلم، عطف عليه استعطافاً لهم مع إفهامه الترهيب: {والله} أي المحيط بصفات الكمال {غفور} أي ستور لذنب من تاب من جهله {رحيم *} يعامله معاملة الراحم فيسبغ عليه نعمه. ولما تابوا، أعتبهم الله في غلظتهم على خير خلقه أن جعلهم أغلظ الناس على شر الناس: الدجال، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنهم أشد الناس عليه».

ولما أنهى سبحانه ما أراد من النهي عن أذى الرسول صلى الله عليه وسلم في نفسه، وكان من ذلك أذاه في أمته، فإنه عزيز عليه ما عنتوا وكان من آذاه فيهم فاسقاً، وكان أعظم الأذى فيهم ما أورث كرباً فأثار حرباً، وكان ربما اتخذ أهل الأغراض هذه الآداب ذريعة إلى أذى بعض المسلمين فقذفوهم بالإخلال بشيء منها فوقعوا هم فيها فيما قذفوا به غيرهم من

الإخلال بحقه والتقيد بولائه ورقه، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخلاق الطاهرة والمعالي الظاهرة ما يؤمن معه أن يوقع شـــيئاً في غير محله، أن يأمر بأمر من غير حله- هذا مع ما له من العصــمة، قال منبهاً على ما في القسم الثالث من مكارم الأخلاق من ترك العجز بالاعتماد على أخبار الفســـقة، تخاطباً لكل من أقر بالإيمان على طريق الاســـتنتاج مما مضى، نادباً إلى الاسترشاد بالعقل الذي نفاه عن أهل الآية السالفة، والعفو عن المذنب والرحمة لعباد الله، منادياً بأداة البعد إشـــارة إلى أن من احتاج إلى التصريح بمثل هذا التنبيه غير مكتف بما أفاده من قواعد الشرع وضع نفســـه في محل بعيد، وتنبيهاً على أن ما في حيزها كلام له خطب عظيم ووقع جســيم: {يا أيها الذين آمنوا} وعبر بالفعل الماضـــي الذي هو لأدنى أســنان القلوب، وعبر بأداة الشــك إيذاناً بقلة الفاسـق فيهم وقلة مجيئه إليهم بخبر له وقع، فقال: {إن جاءكم} أي في وقت من الأوقات {فاسق} أي خارج من ربقة الديانة أيّ فاسـق كان {بنبأ} أي خبر يعظم خطبه فيؤثر شـراً، أيّ خير كان مما يكون كذلك؟ {فتبينوا} أي عالجوا البيان وهو فصل الخطأ من الصـــواب، اســـتعمالاً لغريزة العقل المنفي عن المنادين واتصـــافاً بالغفران والرحمة ليرحمكم الله ويغفر لكم، وهذه القراءة غاية لقراءة حمزة والكســـائي بالمثلثة ثم المثناة الفوقية، والســـياق مرشـــد إلى أن خبر الفاســـق كالنمام والســـاعي بالفســـاد كما أنه لا يقبل فلذلك لا يرد حتى يمتحن، وإلى أن خبر العدل لا وقفة فيه، وإلا لاســـتوى مع الفاســـق، فالتثبت معلل بالفســـق، فإذا انتفى ولم توجد علة أخرى توجب التثبت وجب القبول، والمعلق على شـــيء

بكلمة «إن» عدم عند عدمه، والتبين بأحد شيئين: بمراجعة النبي صلى الله عليه وسلم إن كان حاضراً، وبمراجعة آثاره من كتاب الله وسنته إلى أن تبين الأمر منهما إن كان غائباً، فإنه لا تكون أبداً كائنة إلا وفي الكتاب والسنة المخرج منها.

ولما أمر بالتبين، ذكر علته فقال: {أن} أي لأجل كراهة أن {تصيبوا} أي بأذى {قوماً} أي هم مع قوتهم النافعة لأهل الإسلام براء مما نسب إليهم {بجهالة} أي مع الجهل بحال استحقاقهم ذلك.

ولما كان الإنسان إذا وضع شيئاً في غير موضعه جديراً بالندم، سبب عن ذلك قوله: {فتصبحوا} أي فتصيروا، ولكنه عبر بذلك لأن أشنع الندم ما استقبل الإنسان صباحاً وقت انتباهه وفراغه وإقباله على لذاته {على ما فعلتم} أي من إصابتهم {نادمين *} أي عريقين في الأسف على ما فات مما يوقع الله في نفوسكم من أمور ترجف القلوب وتخور الطباع، وتلك سنته في كل باطل، فإنه لكونه مزلزلاً في نفسه لا ينشأ عنه إلا الزلزال والندم على ما وقع من تمني أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام بما تدور مادته عليه مما يرشد إليه مدن ودمن، وهو ينشأ من تضييع أثقال الأسباب التي أمر الإنسان بالسعي فيها كما أشار إليه حديث «احرص على ما ينفعك ولا تعجز فإن غلبك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت كذا، فإن» لو «تفتح عمل الشيطان» والفاسق المذكور في الآية المراد به الجنس، والذي نزل ذلك بسببه هو الوليد بن عقبة، ولم يزل كذلك

حتى أن عثمان رضي الله عنه ولاه الكوفة فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً ثم قال: هل أزيدكم فعزله عثمان رضي الله عنه.

ولما كان إقدامهم على كثير من الأمور من غير مشـــاورة لمن أرســـله الله رحمة لعباده ليعلمهم ما يأتون وما يذرون عمل من لا يعلم أن رســـول الله صـلى الله عليه وسـلم قريب منه، وكان الإعراض عنه حياً وعن بذل الجهد في اســتخراج الأمور من شــريعته بعد موته أمراً مفســداً للبين إن لم يعتبر ويتنبه له غاية التنبه، أخبرهم به منزلاً لهم منزلة من لا يعلم أنه موجود معه مشـــيراً بكلمة التنبيه إلى أن من أخل بمراعاة ذلك في عداد الغافلين فقال: {واعلموا} أي أيها الأمة، وقدم الخبر إيذاناً بأن بعضهم باعتراضه أو بإقدامه على ما لا علم له به يعمل علم من لا يعلم مقدار ما خصـــه الله به من إنعامه عليه به صــلى الله عليه وســلم، فهو يفيد توبيخ من فعل ذلك: {أن فيكم} أي على وجه الاختصاص لكم ويا له من شرف {رسول الله} أي الملك الأعظم المتصـــف بالجلال والإكرام على حال هي أنكم تريدونه أن يتبع أذاكم، وذلك أمر شــنيع جداً، فإنه لا يليق أن يتحرك إلا بأمر من أرســله، فيجب عليكم الرجوع عن تلك الحالة، فإنك تجهلون أكثر مما تعلمون، ولإرادتهم إن لا يطيعهم في جميع الأمور عبر بالمضارع فقال: {لو يطيعكم} وهو لا يحب عنتكم ولا شــيئاً يشــق عليكم {في كثير من الأمر} أي الذي تريدونه على فعله من أنه يعمل في الحوادث على مقتضـــى ما يعن لكم وتستصـوبونه ليكون فعله معكم فعل المطواع لغيره التابع له، فينقلب حينئذ الحال، ويصير المبتوع تابعاً والمطاع طائعاً {لعنتم} أي لاءمتم وهلكتم، ومن

أراد دائماً أن يكون أمر الرسول الله صلى الله عليه وسلم تابعاً لأمره فقد زين له الشـــيطان الكفران، فأولئك هم الغاوون، وســـياق «لو» معلم قطعاً أن التقدير: ولكنه صـلى الله عليه وسـلم لا يطيعكم لكراهة لما يشـق عليكم لما هو متخلق به من طاعة الله والوقوف عند حدوده والتقيد في جميع الحركات والسـكنات بأمره، مع ما له من البصـرة في التمييز بين الملبسـات والخبرة التامة بالأمور المشـتبهات، التي هي سـبب هلاك الأغلب لكونها لا يعلمها كثير من الناس، والتقييد بالكثير معلم بأنهم يصـيبون وجه الرشـاد في كثير من الأمور.

ولما كان التقدير حتماً بما هدى إليه السـياق: ولو خالفتموه في الأمور التي لا يطيعكم فيها لعنتم، اســتدرك عنه قوله: {ولكن الله} أي الملك الأعظم الذي يفعل ما يريد {حبب إليكم الإيمان} فلزمتم طاعته وعشقتم متابعته. ولما كان الإنسان قد يحب شيئاً وهو يعلم فيه عيباً، فيكون جديراً بأن يتزلزل فيه، نفى ذلك بقوله: {وزينه في قلوبكم} أي فلا شـــيء عندكم أحســـن منه ولا يعادله ولا يقاربه بوجه {وكره إليكم الكفر} وهو تغطية ما أدت إليه الفطرة الأولى والعقول المجردة عن الهوى من الحق بالجحود {والفســـوق} وهو المروق من ربقة الدين، ولو من غير تغطية بل بغير تأمل {والعصيان} وهو الامتناع من الانقياد عامة فلم تخالفوه، ورأيتم خلافه هلاكاً، فصـــرتم والمنة لله أطوع شيء للرسول صلى الله عليه وسلم، فعلم من هذا أن الله تعالى هو الفاعل وحده لجميع الأفعال من الطاعات والمعاصـــي والعادات والعبادات، لأنه خالق لكل، ومدحوا لفعل الله بهم لأنهم الفاعلون في الظاهرة فهو واقع

موقع: أطعتم الرسول صلى الله عليه وسلم ولم تخالفوه، وإنما وضع فعل الله وهولا يمدحون عليه موضـــع فعلهم الذي يمدحون عليه للحث على الشـــكر والإنسلاخ من العجب.

ولما أرشـد السـياق إلى متابعتهم على هذا الوجه، أنتج قوله مادحاً لهم ثانياً الكلام عن خطابهم إلى خطابه صـلى الله عليه وسـلم ليدل على عظم هذه الأوصـــاف وبينه بأداة البعد على علو مقام المتصـــف: {أولئك} أي الذين أعلى الله القادر على كل شيء مقاديرهم {هم} أي خاصة {الراشدون *} أي الكاملون في الرشـــد وهو الهدى على أحســـن ســـمت وتقدير، وفي تفســـير الأصـبهاني: الرشـد الاسـتقامة على طريق الحق مع تصـلب فيه- انتهى. والذي أنتج الرشاد متابعة الحق، فإن الله تكفل لمن تعمد الخير وجاهد نفسه على البر بإصـابة الصـواب وإحكام المسـاعي المنافي للندم، {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسـنين} وقد دل السـياق على أنهم كانوا في خبر الوليد صـنفين: صـنف صـدقه وأراد غزوة بني المصـطلق وأشار به، وصـنف توقف، وأن الصـنفين سـلموا آخر الأمر رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فهدوا، فالآية من الاحتباك وهي شـبيهة به: دلت الشـرطية في {لو يطيعكم} على الاستدراكية، والاستدراكية في {ولكن الله} على تقدير الشرطية دلالة ظاهرة.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 11]

{فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْـــلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى

تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)}

ولما ذكر التحبيب والتزيين والتكريه وما أنتجه من الرشاد، ذكر علته إعلاماً بأنه تعالى لا يحب عليه شيء حثاً على الشكر فقال: {فضلاً} أي زيادة وتطولاً وامتناناً عظيماً جسيماً ودرجة عالية من الله الملك الأعظم الذي بيده كل شيء {ونعمة} أي وعيشاً حسناً ناعماً وخفضاً ودعة وكرامة.

ولما كان التقدير: فالله منعم بفضل، بيده كل ضر ونفع، عطف عليه قوله: {والله} أي المحيط بصفات الكمال {عليم} أي محيط العلم، فهو يعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل {حكيم *} بالغ الحكمة، فهو يضع الأشياء في أوفق محالها وأتقنها، فلذلك وضع نعمته من الرسالة والإيمان على حسب علمه وحكمته.

ولما كانت النميمة ونقل الأخبار الباطلة الذميمة ربما جرت فتناً وأوصلت إلى القتال، وكان العليم الحكيم لا ينصب سبباً إلا ذكر مسببه وأشار إلى دوائه، وكان لا ينهى عن الشيء إلا من كان متهيئاً له لما في جبلته من الداعي إليه، فكان قد يواقعه ولو في وقت، قال تعالى معلماً لنا طريق الحكمة في دفع ما جرت إليه الأخبار الباطلة من القتال، معبراً بأداة الشك

إشـــارة إلى أن ما في حيزها لا ينبغي أن يقع بينهم، ولا أن يذكروه إلا على سبيل الفرض: {وإن طائفتان} أي جماعتان بالفعل أو القوة جدير كل جماعة منهما بأن يجتمع على ما دهمها من الأمير بحيث تصـير من شـدة مراعاته كالطائفة حوله والمتحلقة به، بحيث لا يدرى من شـــدة اجتماعها على ذلك أولها من آخرها {من المؤمنين} أي ممن هو معدود في عداد العريقين في الإيمان سواء كان هو عريقاً أو فاعلاً ما يطلق عليه به الاسم فقط.

ولما كانت الشـناعة والفســاد في قتال الجماعة أكثر، عبر بضـمير الجمع دون التثنية تصـويراً لذلك بأقبح صـورة فقال: {اقتتلوا} أي فاختلطوا بسـبب القتال حتى كانوا كالفرقة الواحدة {فأصـلحوا} أي فأوقعوا الإصـلاح ليحصـل الصـلح. ولما كانت العبرة في الصـلح إذا وقع بين الطائفتين ما يسـكن به الشـر وإن تخلف شـذان من الجانبين لا يعبأ بهم، عبر بالتثنية دون الجمع فقال: {بينهما} أي بالوعظ والإرشـاد الدنيوي والأخروي، ولا تظنوا أن الباغي غير مؤمن فتتجاوزوا فيه أمر الله.

ولما كان البغي من أشــنع الأمور فكان ينبغي أن لم يلم به أحد، عبر بأداة الشك إرشاداً إلى ذلك فقال: {فإن بغت} أي أوقعت الإرادة السيئة الكائنة من النفوس التي لا تأمر بخير {إحداهما} أي الطائفتين {على الأخرى} فلم ترجع إلى حكم الله الذي خرجت عنه ولم تقبل الحق. ولما كان الإضمار هنا ربما أوهم لبسـاً فتمسـك به متعنت في أمر فسـاد، أزال بالإظهار كل لبس فقال: {فقاتلوا} أي أوجدوا واطلبوا مقاتلة {التي}.

ولما كان القتال لا يجوز إلا بالاستمرار على البغي، عبر بالمضارع إفهاماً لأنه متى زال البغي ولو بالتوبة من غير شوكة حرم القتال فقال: {تبغي} أي توقع الإرادة وتصر عليها، وأديموا القتال لها {حتى تفيء} أي ترجع مما صارت إليه من جر القطيعة الذي كأنه حر الشمس حين نسخه الظل إلى ما كانت فيه من البر والخير الذي هو كالظل الذي ينسخ الشمس، وهو معنى قوله تعالى: {إلى أمر الله} أي التزام ما أمر به الملك الذي لا يهمل الظالم، بل لا بد أن يقاصصه وأمره ما كانت عليه من العدل قبل البغي.
ولما كانت مقاتلة الباغي جديرة بترجيعه، أشار إلى ذلك بقوله: {فإن فاءت} أي رجعت إلى ما كانت عليه من التمسك بأمر الله الذي هو العدل {فأصلحوا} أي أوقعوا الإصلاح {بينهما}.

ولما كان الخصام يجر في الغالب من القول والفعل ما يورث للمصلحين إحنة على بعض المتخاصمين، فيحمل ذلك على الميل مع بعض على بعض، قال: {بالعدل} ولا يحملكم القتال على الحقد على المتقاتلين فتحيفوا.
ولما كان العدل في مثل ذلك شديداً على النفوس لما تحملت من الضغائن قال تعالى: {وأقسطوا} أي وأزيلوا القسط- بالفتح وهو الجور- بأن تفعلوا القسط بالكسر وهو العدل العظيم الذي لا جور فيه، في ذلك وفي جميع أموركم، ثم علله ترغيباً فيه بقوله مؤكداً تنبيهاً على أنه من أعظم ما يتمادح به، وردّاً على من لعله يقول: إنه لا يلزم نفسه الوقوف عنده إلا ضعيف: {إن الله} أي الذي بيده النصر والخذلان {يحب المقسطين *} أي يفعل مع أهل العدل من الإكرام فعل المحب.

ولما أمر بما قد يفضي إلى القتال، وكان الباغي ربما كان أقرب إلى الصلح من جهة النسب من المبغيّ عليه فروعي، وكان القتال أمراً شاقاً ربما حمل على الإحجام عن الإصلاح، علل ذلك سبحانه بما قدم فيه قرابة الدين على قرابة النسب، وكشف كشفاً تاماً عن أنه لا يسوغ له تركه لما يؤدي إليه من تفريق الشمل المؤدي إلى وهن الإسلام وأهله المؤدي إلى ظهور الباطل المؤدي إلى الفساد الأعظم الذي لا تدارك له فقال تعالى: {إنما المؤمنون} أي كلهم وإن تباعدت أنسابهم وأغراضهم وبلادهم {إخوة} لانتسابهم إلى أصل واحد وهو الإيمان، لا بعد بينهم، ولا يفضل أحد منهم على أحد بجهة غير جهة الإيمان.

ولما كانت الأخوة داعية ولا بد إلى الإصلاح، سبب عنها قوله: {فأصلحوا}. ولما كانت الطائفة قد تطلق على ما هو أصل لأن يطاف حوله كما يطلق على ما فيه أهلية التحليق والطواف، وكان أقل ما يكون ذلك في الأثنين، وأن مخاصمتهما يجر إلى مخاصمة طائفتين بأن يغضب لكل ناس من قبيلته وأصحابه، قال واضعاً الظاهر موضع المضمر مبالغة في تقرير الأمر وتأكيده، وإعلاماً بأن المراد بالطائفة القوة لا الفعل بحيث يكون ذلك شاملاً للاثنين فما فوقهما: {بين أخويكم} أي المختلفين بقتال أو غيره كما تصلحون بين أخويكم من النسب، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، بل الأمر كما نقل عن أبي عثمان الحيري أن أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، وقرأ يعقوب {إخوتكم} بالجمع، وقراءة الجماعة أبلغ لدلالتها على الاثنين فما فوقهما بالمطابقة {واتقوا الله} أي الملك الأعظم الذين هم

عباده في الإصـــلاح بينهما بالقتال وغيره، لا تفعلوا ما صـــورته إصـــلاح وباطنه إفساد، وأشـار إلى سـهولة الأمور عنده ونفوذ أمره وأن النفوس إنما تشوفها إلى الإكرام لا إلى كونه من معين، فبنى للمفعول قوله تعالى: {لعلكم ترحمون *} أي لتكونوا إذا فعلتم ذلك على رجاء عند أنفسـكم ومن ينظركم من أن يكرمكم الذي لا قادر في الحقيقة على الإكرام غيره بأنواع الكرامات كما رحمتم إخوتكم بإكرامهم عن إفســـاد ذات البين التي هي الحالقة، وقد دلت الآية أن الفسـق بغير الكفر لا يخرج عن الإيمان، وعلى أن الإصـلاح من أعظم الطاعات، وعلى وجوب نصـــر المظلوم لأن القتال لا يباح بدون الوجوب، قال القشيري: وذلك يدل على عظم وزر الواشي والنمام والمضرب في إفســـاد ذات البين، وقال: من شـــرط الأخوة أن لا تحوج أخاك إلى الاستعانة بك والتماس النصرة منك، ولا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مسألتك.

ولما نهى عن الإســراع بالإيقاع بمجرد ســـماع ما يوجب النزاع، وختم بما ترجى به الرحمة، وكان ربما كان الخبر الذي أمر سـبحانه بتبينه صـريحاً، نهى عن موجبات الشـر التي يخبر بها فتكون سـبباً للضـغائن التي يتسـبب عنها الشـر الذي هو سـبب للنقمة رحمة لعباد الله وتوقعاً للرحمة منه، فقال على سبيل النتيجة من ذلك ذاكراً ما في القسم الرابع من الآداب والمنافع من وجوب ترك أذى المؤمنين في حضـورهم والإزراء بحالهم المذهب لسـرورهم الجالب لشـرورهم: {يا أيها الذين آمنوا} أي أوقعوا الإقرار بالتصـديق {لا يسخر} أي يهزأ ويستذل.

ولما كانت السخرية تكون بحضرة ناس، قال معبراً بما يفهم أن من شارك أو رضـي أو سكت وهو قادر فهو ساخر مشارك للقائل: {قوم} أي ناس فيهم قوة المحاولة، وفي التعبير بذلك هز إلى قيام الإنسان على نفسه وكفها عما تريده من النقائص شكراً لما أعطاه الله من القوة: {من قوم} فإن ذلك يوجب الشـر لأن أضـعف الناس إذا حرك للانتقاص قوي بما يثور عنده من حظ النفس.

ولما كان الذي يقتضيه الرأي الأصيل أنه لا يستذل الإنسان إلا من أمن أن يصـير في وقت من الأوقات أقوى منه في الدنيا وفي الآخرة، علل بقوله: {عسى} أي لأنه جدير وخليق لهم {أن يكونوا} أي المستهزأ بهم {خيراً منهم} فينقلب الأمر عليهم ويكون لهم سـوء العاقبة، قال ابن مسـعود رضـي الله عنه: البلاء موكل بالقول ولو سخرت من كلب خشيت أن أحول كلباً؛ وقال القشيري: ما استضعف أحد أحداً إلا سلط عليه، ولا ينبغي أن تعتبر بظاهر أحوال الناس، فإن في الزوايا خبايا، والحق سبحانه يستر أولياءه في حجاب الظنة، كذا في الخبر

»كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره«.

ولما كان إطلاق القوم لمن كان فيه أهلية المقاومة وهم الرجال، قال معبراً ما هو من النسوة بفتح النون أن ترك العمل: {ولا نساء من نساء} ثم علل النهي بقوله: {عسى} أي ينبغي أن يخفن من {أن يكن} المسخور بهن {خيراً منهن} أي الساخرات.

ولما كانت السـخرية تتضـمن العيب، ولا يصـرح فيها، وكان اللمز العيب نفسـه، رقي الأمر إليه فقال : {ولا تلمزوا } أي تعيبوا على وجه الخفية {أنفسكم} بأن يعيب بعضكم بعضاً بإشارة أو نحوها، فكيف إذا كان على وجه الظهور، فإنكم في التواصل والتراحم كنفس واحدة، أو يعمل الإنسان ما يعاب به، فيكون قد لمز نفسه أو يلمز غيره فيكون لمزه له سبباً لأن يبحث عن عيوبة فيلمزه فيكون هو الذي لمز نفسه {ولا تنابزوا} أي ينبز بعضكم بعضاً، أي يدعو على وجه التغير والتسـفل {بالألقاب } بأن يدعو المرء صاحبه بلقب يسوءه سواء كان هو المخترع له أولاً، وأما ألقاب المدح فنعم هي كالصديق والفاروق.

ولما كان الإيمان قيداً لأوابد العصـيان، وكان النبز والسـخرية قطعاً لذلك القيد، علل بما يؤذن فأنه فسـق، معبراً بالكلمة الجامعة لجميع المذامّ تنفيراً من ذلك فقال : {بئس الاسـم الفسـوق } أي الخروج من ربقة الدين {بعد الإيمان} ترك الجارّ إيذاناً بأن من وقع في ذلك أوشك أن يلازمه فيستغرق زمانه فيه فإن النفس عشاقة للنقائص، ولا سيما ما فيه استعلاء، فمن فعل ذلك فقد رضي لنفسه أو يوسم بالفسق بعد أن كان موصوفاً بالإيمان.

ولما كان التقدير : فمن تاب فأولئك هم الراشـدون، وكان المقام بالتحذير أليق، عطف عليه قوله: {ومن لم يتب} أي يرجع عما نهى الله عنه، فخفف عن نفسه ما كان شدد عليها {فأولئك} أي البعداء من الله {هم} أي خاصة {الظالمون *} أي العريقون في وضع الأشياء في غير مواضعها.

▲ تفسير الآيات رقم [12- 14]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)}

ولما كان الإنسان ربما دعا صاحبه بلقب له شيء غير قاصد به عيبه، أو فعل فعلاً يتنزل على الهزء غير قاصد به الهزء، نهى تعالى عن المبادرة إلى الظن من غير تثبت لأن ذلك من وضع الأشياء في غير مواضعها، الذي هو معنى الظلم فقال خاتماً بالقسم الخامس منبهاً على ما فيه من المعالي والنفائس: {يا أيها الذين آمنوا} أي اعترفوا بالإيمان وإن كانوا في أول مراتبه {اجتنبوا} أي كلفوا أنفسكم أن تتركوا وتبعدوا وتجعلوا في جانب بعيد عنكم {كثيراً من الظن} أي في الناس وغيرهم فاحتاطوا في كل ظن ولا تمادوا معه حتى تجزموا به فتقدموا بسببه على ما يقتضيه من الشر إلا بعد التبين لحقه من باطله بأن يظهر عليه أمارة صحيحة وسبب ظاهر، والبحث عن ذلك الذي أوجب الظن ليس بمنهيّ عنه كما فتش النبي صلى الله عليه وسلم في قصة الإفك وتثبت حتى جاءه الخبر اليقين من الله، وأفهم هذا أن كثيراً منه مجتنب كما في الاجتهاد حيث لا قاطع، وكما في ظن الخير بالله تعالى، بل قد يجب كما قال تعالى: {ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون

والمؤمنات بأنفسهم خيراً} [النور: 12] وقد أفاد التنكير شياع النهي في كل ظن، فكان بمعنى «بعض» مع الكفالة بأن كثيراً منه منهيّ عن الإقدام عليه إلا بعد تبين أمره، ولو عرف لأفهم أنه لا يجتنب إلا إذا اتصف بالكثرة، قال القشيري: والنفس لا تصدق، والقلب لا يكذب، والتمييز بين النفس والقلب مشكل، ومن بقيت عليه من حظوظة بقية وإن قلت فليس له أن يدعى بيان القلب، بل هو بنفسه ما دام عليه شيء من بقيته، ويجب عليه أن يتهم نفسه في كل ما يقع له من نقصان غيره، ثم علل ذلك مثيراً إلى أن العاقل من يكف نفسه عن أدنى احتمال من الضرر احتمالاً مؤكداً لأن أفعال الناس عند الظنون أفعال من هو جازم بأنه بريء من الإثم: {إن بعض الظن إثم} أي ذنب يوصل صاحبه لاستحقاق العقوبة كالظن في أصول الدين، وحيث يخالفه قاطع، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: الهمزة في الإثم عن الواو وكأنه يثم الأعمال أي يكسرها بإحباطه.

ولما نهى عن اتباع الظن، أتبعه ما يتفرع عنه فقال: {ولا تجسسوا} أي تمعنوا في البحث عن العورات ولا يكون ذلك إلا في المستورين.

ولما كانت الغيبة أعم من التجسس، قال: {ولا يغتب} أي يتعمد أن يذكر {بعضكم بعضاً} في غيبته بما يكره، قال القشيري: وليس تحصل الغيبة من الخلق إلا بالغيبة عن الحق، وقال أبو حيان: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الغيبة إدام كلاب الناس.

ولما كان تمزيق عرض الناس كتمزيق أديمهم ولا يكون ذلك ساتر عظمة الذي به قوامه كما أن عرضه ساتر عليه، وكونه لا يرد عن نفسه بسبب

غيبته كموته وأعمال الفم والجوف في ذلك كله، وكان هذا لو تأمله العاقل كان منه على غاية النفرة، ولكنه لخفائه لا يخطر بباله، جلاه له في قوله تقريراً وتعبيراً بالحب عما هو في غاية الكراهة لما للمغتاب من الشـــهوة في الغيبة ليكون التصـوير بذلك رادّاً له عنها ومكرهاً فيها: {أيحب} وعم بقوله: {أحدكم} وعبر بأن والفعل تصـويراً للفعل فقال: {أن يأكل} وزاد في التنفير بجعله في إنسان هو أخ فقال: {لحم أخيه} وأنهى الأمر بقوله: {ميتاً}.

ولما كان الجواب قطعاً: لا يحب أحد ذلك، أشــار إليه بما سـبب من قوله: {فكرهتموه} أي بســـب ما ذكر طبعاً فأولى أن تكرهوا الغيبة المحرمة عقلاً، لأن داعي العقل بصير عالم، وداعي الطبع أعمى جاهل، وقد رتب سبحانه هذه الحكم أبدع ترتيب، فأمر سـبحانه بالتثبت. وكان ربما أحدث ضــغينة، نهى عن العمل بموجبه من الســخرية واللمز والنبز والتمادي مع ما ينشـــره ذلك من الظنون، فإن أبت النفس إلا تمادياً مع الظن فلا يصل إلى التجسس والبحث عن المعايب، فإن حصــل الاطلاع عليها كف عن ذكرها، وســعى في سترها، وفعل ذلك كله لخوف الله، لا شيء غيره، فإن وقع في شيء من ذلك بادر المتاب رجاء الثواب.

ولما كان التقدير: فاتركوه بسـبب كراهتهم لما صـورته، عطف عليه ما دل على العلة العظمى وهي خوف الله تعالى فقال: {واتقوا الله} أي اجعلوا بينكم وبين الملك الأعظم وقاية بترك ذلك وإصـلاح ذات البين. ولما كان التقدير: فإن الله يتوب عليكم إن تركتموه، علله بما دل على أن ذلك صـفة له متكررة التعلق فقال: {إن الله} أي الملك الأعظم {تواب} أي مكرر للتوبة، وهي

الرجوع عن المعصــية إلى ما كان قبلها من معاملة التائب وإن كرر الذنب، فلا ييأس أحد وإن كثرت ذنوبه وعظمت {رحيم *} يزيده على ذلك أن يكرمه غاية الإكرام.

ولما ذكر سبحانه الأخوة الدينية تذكيراً بالعاطف الموجب للإكرام، المانع من الانتقـام، ونهى عن أمور يجر إليهـا الإعجـاب بـالنفس من جهـة التعظيم بالآباء والعراقة في النسب العالي، أسقط ذلك مبيناً أن لا نسـب إلا ما يثمره الإيمان الي بدأ به من التقوى، وعبر بما يدل على الذبذبة والاضـــطراب إشــارة إلى سـفول رتبة من افتخر بالنسـب، وإلى أن من لم يتعظ بما مضــى فيعلو عن رتبة الذين آمنوا فقد سفل سفولاً عظيماً: {يا أيها الناس} أي كافة المؤمن وغيره {إنا} على عظمتنا وقدرتنا {خلقناكم} أي أوجدناكم عن العدم على ما أنتم عليه من المقادير في صـوركم وما أنتم عليه من التشـعب الذي يفوت الحصر، وأخرجنا كل واحد منكم {من ذكر} هو المقصود بالعزم والقوة {وأنثى} هي موضـــع الضـــعف والراحة، لا مزية لأحد منكم في ذلك على آخر، ولا فخر في نسب.

ولما كان تفضـــيلهم إلى فرق لكل منهما تعرف به أمراً باهراً، عبر فيه بنون العظمة فقال: {وجعلناكم} أي بعظمتنا {شـعوباً} تتشـعب من أصـل واحد، جمع شعب بالفتح وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست من طبقات النسب التي عليها العرب {وقبائل} تحت الشـــعوب، وعمائر تحت القبائل، وبطوناً تحت العمائر، وأفخاذاً تحت البطون، وفصـــائل تحت الأفخاذ، والعشـــائر تحت الفصـائل، خزيمة شـعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصـيّ بطن،

وعبد مناف فخذ، وهاشم فصيلة، والعباس عشيرة، قال البغوي: وليس بعد العشيرة حي يوصف به– انتهى. واقتصر على الأولين لأنهما أقصى ما يسهل على الآدمي معرفته فما دونه أولى، ثم ذكر علة التشعب ليوقف عندها فقال: {لتعارفوا} أي ليعرف الإنسان من يقاربه في النسب ليصل من رحمه ما يحق له، لا لتواصفوا وتفاخروا.

ولما كانت فائدة التفاخر بالتواصف عندهم الإكرام لمن كان أفخر، فكانت الآية السالفة التي ترتبت عليها هذه آمرة بالتقوى كان التقدير: فتتقوا الله في أقاربكم وذوي أرحامكم، فقال مبطلاً للتفاخر بالأنساب معللاً لما أرشد إلى تقديره السياق مؤكداً لأجل ما عندهم من أن الكرم إنما هو بالنسب: {إن أكرمكم} أيها المتفاخرون {عند الله} أي الملك الذي لا أمر لأحد معه ولا كريم إلا من أكرمكم بكرمه ولا كمال لأحد سواه {أتقاكم} فذلك هو الذكر الذي يصح أصله باقتدائه بأبيه آدم عليه السلام فلم يمل إلى الأنوثة وإن كان أدناكم نسباً ولذلك أكده، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» أي علموا بأن كانت لهم ملكة الفقه فعملوا بما عملوا كما قال الحسن رحمه الله: إنما الفقيه العامل بعلمه. وقد تقدم أن هذا هو المراد بقوله تعال: {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} [الزمر: 9] لما دل عليه سياقها وسباقها، والأتقى لا يفتخر على غيره لأنه لا يعتقد أنه أتقى، قال الرازي في اللوامع: أكرم الكرم التقوى، وهو مجمع الفضائل الإنسانية، وألأم اللؤم الفجور، وذلك أن الكرم اسم للأفعال المحمودة، وهذه الأفعال إنما تكون محمودة إذا كانت عن

علم، وقصد بها الله، وهذا هو التقوى، فليس التقوى إلا العلم وتحري الأفعال المحمودة- انتهى. وذلك لأن التقوى تثبت الكمالات وتنفي النقائص فيصير صاحبها بشرياً ملكياً.

ولما كان هذا مركوزاً في طبائعهم مغروزاً في جبلاتهم متوارثاً عندهم أن الفخر إنما هو بالأنساب، وأن الكريم إنما هو من طاب أصله، وكان قلع ذلك من نفوسهم فيما أجرى به سبحانه العادة في دار الأسباب يتوقف على تأكيد، أكد سبحانه معللاً قوله لإخباره بالأكرم: {إن الله} أي المحيط علماً وقدرة {عليم} أي بالغ العلم بالظواهر {خبير *} محيط العلم بالبواطن والسرائر أيضاً، روى البغوي بسند من طريق عبد الله بن حميد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته ليستلم الأركان بمحجنه، فملا خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال، ثم قام فخطبهم ثم حمد الله وأثنى عليه وقال:

»الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها بآبائها، إنما الناس رجلان: برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله- ثم تلا» يا أيها الناس «الآية، ثم قال: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» وأخرجه أبو داود والترمذي وحسنة والبيهقي- قال المنذري، بإسناد حسن، واللفظ له- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال: «إن الله عز وجل أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم وآدم من تراب، مؤمن تقي وفاجر شقي، لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم

من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تـدفع النتن بأنفها».

ولما أمر سبحانه بإجلال رسوله صلى الله عليه وسلم وإعظامه، ونهى عن أذاه في نفســـه أو في أمته، ونهى عن التفاخر الذي هـ وســـبب التقاطع والتداحر، وختم بصفتة الخبر، دل عليها بقوله مشيراً إلى أنه لا يعتد بشيء مما أمر به أو نهى عنه إلا مع الإخلاص فقال: {قالت الأعراب} أي أهل البادية من بني أســـد وغيرهم الذين هم معدن الغلظة والجفاء الذين تقدم تأديبهم في ســـورة محمد، وألحق التاء في فعلهم إشـــارة إلى ضـــعفهم في العزائم، قال ابن برجان: هم قوم شـــهدوا شـــهادة الحق وهم لا يعلمون ما شهدوا به غير أن أنفسهم ليست تنازعهم إلى التكذيب: {آمنا} أي بجميع ما جئت به فامتثلنا ما أمرنا به في هذه الســـورة ولنا النســـب الخالص، فنحن أشرف من غيرنا من أهل المدر.

ولما كان الإيمان التصـــديق بالقلب فلا اطلاع عليه لآدمي إلا بإطلاعه سبحانه فكانوا كاذبين في دعواه، قال: {قل} أي تكذيباً لهم مع مراعاة الأدب في عدم التصريح بالتكذيب: {لم تؤمنوا} أي لم تصدق قلوبكم لأنكم لو أمنتم لم تمنوا بإيمانكم لأن الإيمان التصـــديق بجميع ما لله من الكمال الذي منه أنه لولا منه بالهداية لم يحصل الإيمان، فله ولرسوله- الذي كان ذلك على يديه- المن والفضل.

ولما كان التقدير ما كان الأصل في أن يكون الرد به وهو: فلا تقولوا: آمنا، فإنه كذب، وعدل عنه للاحتراز عن النهي عن القول بالإيمان، عطف عليه

قوله: {ولكن قولوا} لأنكم أسلمتم للدنيا لا للدين، وعدل عنه لئلا تكون شهادة لهم بالإسلام في الجملة: {أسلمنا} أي أظهرنا الانقياد في الظاهر للأحكام الظاهرة فأمنا من أن نكون حزباً للمؤمنين وعوناً للمشركين، يقول: أسلم الرجل– إذا دخل في السلم، كما يقال: أشتى– إذا دخل في الشتاء، ولم يقل: ولكن أسلمتم، لما فيه من الشهادة لهم بالإسلام الملازم للإيمان المنفي عنه، فكان يكون تناقضاً، والآية من الاحتباك: نفي الإيمان الشرعي أولاً يدل على إثبات الإسلام اللغوي ثانياً، والأمر بالقول بالإسلام ثانياً يدل على النهي عن القول بالإيمان أولاً.

ولما كانت «لم» غير مستغرقة، عطف عليها ما يستغرق ما مضى من الزمان كله ليكون الحكم بعدم إيمانهم مكتنفاً بأمرهم بالاقتصاد على الإخبار بإسلامهم، فقال معلماً بأن ما يجتهدون في إخفائه منكشف لديه «ألا يعلم من خلق». {ولما يدخل} أي إلى هذا الوقت {الإيمان} أي المعرفة التامة {في قلوبكم} فلا يعد إقرار اللسان إيماناً إلا بمواطأة القلب، فعصيتم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأحبطتم أعمالكم، والتعبير ب «لما» يفهم أنهم آمنوا بعد ذلك، ويجوز أن يكون المراد بهذا النفي نفي التمكن في القلب، لا نفي مطلق الدخول بدليل {إنما المؤمنون} دون {إنما الذين آمنوا}.

ولما كان التقدير: فإن تؤمنوا يعلم الله ذلك من قلوبكم غنياً عن قولكم، عطف عليه قوله ترغيباً لهم في التوبة: {وإن تطيعوا الله} أي الملك الذي من خالفه لم يأمن عقوبته {ورسوله} الذي طاعته من طاعته على ما أنتم عليه من الأمر الظاهري فتؤمن قلوبكم {لا يلتكم} أي ينقصكم ويبخسكم من لاته

يليته، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ البصـريان: يألتكم من الألت وهو النقص أيضـاً، وهي لغة أسـد وغطفان، وهما المخاطبون بهذه الآية المعاتبون بها، قال أبو حيان: قال مجاهد: نزلت في بني أسـد بن خزيمة- انتهى. فلذلك اختار أبو عمرو القراءة بها، وعدل عن لغة الحجاز {من أعمالكم شيئاً} فلا حاجة إلى إخباركم عن إيمانكم بغير ما يدل عليه من الأقوال والأفعال، قال ابن برجان: فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسـلمون غير مؤمنين، فإن يعلموا علم ما شهدوا وعقدوا عليه عقداً علماً ويقيناً لهم المؤمنون. وفي الآية احتباك من وجه آخر: ذكر عدم الإيمان أولاً دليلاً على إثباته ثانياً، وذكر توفير الأعمال ثانياً دليلاً على بخسها أو إحباطها أولاً، وسره أنه نفى أساس الخير أولاً ورغب في الطاعة بحفظ ما تعبوا عليه من الأعما ثانياً.

ولما كان الإنسـان مبنياً على النقصـان، فلو وكل إلى عمله هلك، ولذهب عمله فيما يعتريه من النقص، قال مسـتعطفاً لهم إلى التوبة، مؤكداً تنبيهاً على أنه مما يحق تأكيده لأن الخلائق لا يفعلون مثله: {إن الله} أي الذي له صفات الكمال {غفور} أي ستور للهفوات والزلات لمن تاب وصحت نيته، ولغيره إذا أراد، فلا عتاب ولا عقاب {رحيم *} أي يزيد على السـتر عظيم الإكرام.

▲ تفسير الآيات رقم [15- 18]

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّـادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (16)

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْـلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْـلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)}

ولما نفى عنهم الإيمان، وكان ربما غلط شخص في نفسه فظن أنه مؤمن، وليس كذلك، أخبر بالمؤمن على سبيل الحصر ذاكراً أمارته الظاهرة الباطنة، وهي أمهات الفضائل: العلم والعفة والشجاعة، فقال جواباً لمن قال: فمن الذي آمن؟ عادلاً عن جوابه إلى وصف الراسخ ترغيباً في الاتصاف بوصفه وإيذاناً بأن المخبر عن نفسه بآية إيمانه لا يريد إلا أنه راسخ: {إنما المؤمنون} أي العريقون في الإيمان الذي هو حياة القلوب، قال القشيري: والقلوب لا تحيا إلا بعد ذبح النفوس، والنفوس لا تموت ولكنها تعيش {الذين آمنوا} أي صدقوا معترفين {بالله} معتقدين جميع ما له من صفات الكمال {ورسوله} شاهدين برسالته، وهذا هو المعرفة التي هي العلم، وغايتها الحكمة، وهذا الإثبات هنا يدل على أن المنفي فيما قيل الكمال لا المطلق، وإلا لقال «إنما الذين آمنوا».

ولما كان هذا عظيماً والثبات عليه أعظم، وهو عين الحكمة، أشار إلى عظيم مزية الثبات بقوله: {ثم} أي بعد امتطاء هذه الرتبة العظيمة {لم يرتابوا} أي ينازعوا الفطرة الأولى في تعمد التسبب إلى الشك ولم يوقعوا الشك في وقت من الأوقات الكائنة بعد الإيمان، فلا يزال على تطاوله الأمنة وحصول الفتن وصفهم بعد الريب غضاً جديداً، ولعله عبر بصيغة الافتعال إشارة إلى العفو عن حديث النفس الذي لا يستطيع الإنسان دفع أصله

ويكرهه غاية الكراهة ويجتهد في دفعه، فإذا أنفس المذموم المشـــي معه والمطاولة منه حتى يستحكم.

ولما ذكر الأمارة الباطنة على وجه جامع لجميع العبادات المالية والبدنية قال: {وجاهدوا} أي أوقعوا الجهاد بكل ما ينبغي أن تجهد النفس فيه تصديقاً لما ادعوه بألسنتهم من الإيمان {بأموالهم} وذلك هو العفة {وأنفسهم} أعم من النية وغيرها، وذلك هو الشــجاعة، وقدم الأموال لقلتها في ذلك الزمان عند العرب {في سبيل الله} أي طريق الملك الأعظم بقتال الكفار وغيره من سائر العبادات المحتاجة إلى المال والنفس لا الذين يتخلفون ويقولون: شــغلتنا أموالنا وأهلونا، قال القشـيري: جعل الله الإيمان مشـروطاً بخصـال ذكرها، وذكر بلفظ «إنما» وهي للتحقيق، تقتضـي الطرد والعكس، فمن أفرد الإيمان عن شرائطه التي جعلها له فمردود عليه قوله، والإيمان للعبد الأمان، فإيمان لا يوجب الأمان لصاحبه فخلافه أولى به.

ولما عرف بهم بذكر أمارتهم على سـبيل الحصـر، أنتج ذلك حصـراً آخر قطعاً لأطماع المدعين على وجه أثنى عليهم فيه بما تعظم المدحة به عندهم ترغيباً في مثل حالهم فقال: {أولئك} أي العالو الرتبة الذين حصـل لهم اسـتواء الأخلاق والعدل في الدين بجميع أمهات الأخلاق {هم} أي خاصة {الصادقون *} قالاً وحالاً وفعالاً، وأما غيرهم فكاذب.

ولما كانوا كأنهم يقولون: نحن كذلك، أمره صـلى الله عليه وسـلم بالإنكار عليهم والتوبيخ لهم دلالة على ما أشـار إليه ختام الآية إحاطة علمه الذي تميز به الصـادق من غيره من جميع الخلق فقال: {قل} أي لهؤلاء الأعراب

مجهلاً لهم مبكتاً : {أتعلمون} أي أتخبرون إخباراً عظيماً بلغياً، كأنهم لما آمنوا كان ذلك إعلاماً منهم، فلما قالوا آمنا كان ذلك تكريراً، فكان في صورة التعليم، فبكتهم بذلك {الله} أي الملك الأعظم المحيط قدرة وعلماً {بدينكم} فلذلك تقولون : آمنا، ففي ذلك نوع بشـــرى لهم لأنه أوجد لهم ديناً وأضـــافه إليهم- قاله ابن برجان. ولما أنكر عليهم وبكتهم وصل به ما يشهد له فقال: {والله} أي والحال أن الملك المحيط بكل شـيء {يعلم ما في السماوات} كلها على عظمها وكثرة ما فيها ومن فيها . ولما كان في ســـياق الرد عليهم والتبكيت لهم كان موضع التأكيد فقال: {وما في الأرض} كذلك.

ولما كان المقام للتعميم، أظهر ولم يضـمر لئلا يوهم الاختصـاص بما ذكر من الخلق فقال: {والله} أي الذي له الإحاطة الكاملة {بكل شــيء} أي مما ذكر ومما لم يذكر {عليم *}.

ولما كان قولهم هذا صـــورته صـــورة المنة، قال مترجماً له مبكتاً لهم عليه معبراً بالمضـارع تصـويراً لحاله في شـناعته: {يمنون عليك} أي يذكرون ذكر من اصـطنع عندك صـنيعة وأسـدى إليك نعمة، إنما فعلها لحاجتك إليها لا لقصـــد الثواب عليها، لأن المن هو القطع- قال في الكشـــاف : لأنه إنما يســـديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير، من غير أن يعمد لطلب مثوبة، ثم يقال : من عليه ضـــيعة- إذا اعتده عليه منة وإنعاماً . ولما كان الإســـلام ظاهراً في الدين الذي هو الانقياد بالظاهر مع إذعان الباطن لم يعبر به، وقال: {إن أسلموا} أي أوقعوا الانقياد للأحكام في الظاهر.

ولما كان المن هو القطع من العطاء الذي لا يراد عليه جزاء، قال: {قل} أي في جواب قولهم هذا: {لا تمنوا} معبراً بما من المن إشارة إلى أن الإسلام لا يطلب جزاؤه إلا من الله، فلا ينبغي عده صنيعة على أحد، فإن ذلك يفسده {عليّ إسلامكم} لو فرض أنكم كنتم مسلمين أي متدينين بدين الإسلام الذي هو انقياد الظاهر مع إذعان الباطن، أي لا تذكروه على وجه الامتنان أصلاً، فالفعل وهو {تمنوا} مضمن «تذكروا» نفسه لا معناه كما تقدم في {ولتكبروا الله على ما هداكم} {بل الله} أي الملك الأعظم الذي له المنة على كل موجود ولا منة عليه بوجه {يمن عليكم} أي يذكر أنه أسدى إليكم نعمه ظاهرة وباطنة منها ما هو {أن} أي بأن {هداكم للإيمان} أي بينة لكم أو وفقكم للاهتداء وهو تصديق الباطن مع الانقياد بالظاهر، والتعبير عن هذا بالمن أحق مواضعه، فإنه سبحانه غير محتاج إلى عمل فإنه لا نفع يلحقه ولا ضر، وإنما طلب الأعمال لنفع العاملين أنفسهم، ومن عليهم بأن أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم فبين لهم فكذبوه بأجمعهم، فلم يزل يقويه حتى أظهر فيه آية مجده وأظهر دينه على الدين كله، ودخل فيه الناس طوعاً وكرهاً على وجوه من المجد يعرفها من استحضر السيرة ولا سيما من عرف أمر بني أسد وغطفان الذين نزلت فيهم هذه الآيات، وكيف كان حالهم في غزوة خيبر وغيره.

ولما كان المراد بهذا تجهيلهم وتعليمهم حقائق الأمور، لا الشهادة لهم بالهداية، قال منبهاً على ذلك: {إن كنتم} أي كوناً أنتم عريقون فيه {صادقين *} في ادعائكم ذلك، فإنه على تقدير الصدق إنما هو بتوفيق الله وهو الذي

خلق لكم قدرة الطاعة، فهو الفاعل في الحقيقة فله المنة عليكم، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: من لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فإن رآها دون نفسه كان شــركاً، وإن رآها لنفســه كان مكراً، فكيف يمن العبد بما هو شــرك أو مكر، والذي يجب عليه قبول المنة كيف يرى لنفســــه على غيره منة، هذا لعمري فضــيحة، والمنة تكدر الصــنيعة، إذا كانت من المخلوقين، وبالمنة تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله.

ولما نفى عنهم ما هو باطن، وختم جدالهم سبحانه بهذه الشرطية، فكان ربما توهم قاصــر النظر جامد الفكر عدم العلم بما هو عليه، أزال ذلك على وجه عام، وأكده لذلك فقال: {إن الله} أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً {يعلم} أي بطريق ثبوت الصــــفة وتجريد التعلق واســــتمراره كلما تجدد محدث أو كان بحيث يتجدد {غيب السماوات} أي كلها {والأرض} كذلك.

ولما أريد التعميم من غير تقييد بالخافقين أظهر ولم يضمر قوله: {والله} أي الذي له الإحاطة بذلك وبغيره مما لا تعلمون {بصــــير} أي عالم أتم العلم ظاهراً وباطناً {بما تعملون *} من ظاهر إســــلامكم وباطن إيمانكم في الماضــي والحاضــر والآتي سـواء كان ظاهراً أو باطناً سـواء كان قد حدث فصار بحيث تعلمونه أنتم أو كان مغروزاً في جبلاتكم وهو خفي عنكم- هذا على قراءة الخطاب التفات إليهم لاســــتنقاذ من توهم منهم هذا التوهم، وهي أبلغ، وعلى قراءة ابن كثير بالغيب يكون على الأسلوب الأول مما أمر النبي صــلى الله عليه وسـلم بإبلاغه لهم، فهو سـبحانه عالم بمن انطوى ضـميره على الإيمان، ومن هو متكيف بالكفران، ومن يموت على ما هو عليه، ومن

يتحول حاله بإبعاد عنه أو جذب إليه، قال القشـــيري رحمه الله تعالى: ومن وقف ههنا تكدر عليه العيش إذ ليس يدري ما غيبه فيه، وفي المعنى قال:

أبكي وهل تدرين ما يبكيني *** أبكي حذاراً أن تفارقيني

وتقطعي حبلي وتهجريني *** انتهى. وفي ذلك أعظم زجر وترهيب لمن قدم بين يدي الله ورســـوله ولو أن تقدمه في ســـره. فإنه لا تهديد أبلغ من إحاطة العلم، فكأنه قيل: لا تقدموا بين يديه فإن الله محيط العلم فهو يعلم ســـركم وجهركم، فقد رجع هذا الآخر إلى الأول، والتف به التفاف الأصـــل بالموصل.

http://www.al-eman.com/%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%A8/%D9%86%D8%B8%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%B1%20%D9%81%D9%8A%20%D8%AA%D9%86%D8%A7%D8%B3%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D8%A2%D9%8A%D8%A7%D8%AA%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%20%20***/i376&n124&p1